المبحث الخامس
فقه نور الدين في التعامل مع الدولة الفاطمية

أولاً: جذور الشيعة الإسماعيلية والدولة الفاطمية:

بعد موت الإمام جعفر بن محمد الصادق افترقت الشيعة إلى فرقتين ممن نسبو أنفسهم إلى جعفر الصادق: فرقة: ساقت الإمامة إلى ابنه موسى الكاظم، وهؤلاء هم الشيعة الاثنى عشرية. وفرقة: نفت عنه الإمامة وقالت: إن الإمام بعد جعفر، هو ابنه إسماعيل وهذه الفرقة عرفت بالشيعة الإسماعيلية[١]. قال عبد القاهر البغدادي في شأن الإسماعيلية: وهؤلاء ساقوا الإمامة إلى جعفر وزعموا أن الإمام بعده ابنه إسماعيل [٢]. وقال الشهرستاني: الإسماعيلية امتازت عن الموسوية وعن الاثنى عشرية بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر وهو ابنه الأكبر المنصوص عليه في بدء الأمر قالوا: ولم يتزوج الصادق رحمه الله على أمه - أم إسماعيل - بواحدة من النساء ولا تسرى بجارية كسنة رسول الله في حق خديجة رضي الله عنها، وكسنة علي رضي الله عنه في حق فاطمة رضي الله عنها[٣] فالإسماعيلية إحدى فرق الشيعة وهي تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ولهم ألقاب كثيرة عرفوا بها غير لقب الإسماعيلية منها الباطنية، وإنما أطلق عليهم هذا اللقب لقولهم بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويل، ومنهم القرامطة والمزدكية، وقد عرفوا بهذين اللقبين في بلاد العراق، ويطلق عليهم في خراسان التعليمية الملحدة وهم لا يحبون أن يعرفوا بهذه الأسماء، وإنما يقولون: نحن الإسماعيلية لأنا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم [٤]. وقد قامت الدولة الفاطمية الرافضية عام ٢٩٦هـ/٩٠٩م في الشمال الأفريقي على يدي أبي عبد الله الشيعي بعد سقوط القيروان أمام قواته وهروب زيادة التغلبي إلى مصر في جمادى الآخرة عام ٢٩٦هـ [٥] وكانت بيعة عبيد الله المهدي في القيروان عام ٢٩٧هـ/٩١٠م وانتهت ولاية أبي عبد الله الشيعي بعد أن دامت عشر سنوات على قول بعض المؤرخين [٦].

١ – عبيد الله المهدي الخليفة الشيعي الرافضي الأول:

هو عبيد الله أبو محمد أول من قام من الخلفاء العُبيدية الباطنية الذين قلبوا الإسلام، وأعلنوا بالرفض، وأبطنوا مذهب الإسماعيلية وبثوا الدُّعاة يستغوون الجبليَّة والجهلة [٧]، وذكر الذهبي ما قيل عنه في نسبه ثم قال: والمحققون على أنه دعيٌّ بحيث إنَّ المعزَّ منهم لما سأله السيد ابن طَبَاطَبا عن نسبه، قال: غدا أخرجه لك، ثم أصبح وقد ألقى عُرَمة من الذهب، ثم جَذبَ نِصْف سيفه

(١) الدولة الفاطمية العبيدية للصَّلاَّبي ص ٣٥.
(٢) الفرق بين الفرق ص ٦٢.
(٣) الملل والنحل (١٩١/١).
(٤) المصدر نفسه (١٩٢/١).
(٥) موسوعة المغرب العربي (٦٠/٢).
(٦) المرجع السابق (٧٠/٢).
(٧) سير أعلام النبلاء (١٤١/١٥).

من غمِدِه فقال: هذا نسبي، وأمرهم بنهب الذهب، وقال: هذا حسبي [١] وأما مفتي الديار الليبية رحمه الله الشيخ طاهر الزاوي فقد قال في ترجمة عبيد الله المهدي: هو مؤسس الدولة العبيدية وأول حاكم فيها وهو عراقي الأصل، ولد في الكوفة سنة ٢٦٠هـ واختبأ في بلدة سلميَّة بؤرة الإسماعيلية الباطنية في شمال الشام. ومن يوم أن ولد إلى أن استقر في سلميَّة كان يعرف باسم سعيد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح، وفي منطقة سَلَميَّة مقر الإسماعيلية مات علي بن حسن بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأقام له الإسماعيلية مزارات سرية، وقرروا نقل الإمامة من ذرية إسماعيل بن جعفر الصادق إلى ابنهم بالنكاح الروحي [٢]، ثم قال: هذا أصل عبيد الله المهدي، وهذا أصل العبيديين المنسوبين إليه [٣] ويذكر أن عبيد الله الشيعي عندما دخل إفريقيا (يعني تونس): أظهر التشيع القبيح وسب أصحاب النبي ρ وأزواجه حاشا علي بن أبي طالب والمقداد وعمار بن ياسر وسلمان الفارسي وأبا ذر الغفاري، وزعم أن أصحاب النبي ρ ارتدود بعده غير هؤلاء الذين ذكروا [٤]. وكان أهل السنة بالقيروان أيام بني عبيد في حالة شديدة من الاهتضام والتستر كأنهم ذمة [٥] تجري عليهم في كثير من الأيام محن شديدة، ولما ظهر بنو عبيد أمرهم ونصبوا حسيناً الأعمى السباب - في الأسواق للسب بأسجاع لُقَّنها يتوصل منها إلى سب الرسول ρ في ألفاظ حفظها [٦]. مثل: العنوا الغار وما وعى والكساء وما حوى وغير ذلك والغار المقصود منه غار ثور الذي اختفى فيه الرسول ρ وأبو بكر رضي الله عنه عن أعين المشركين التي كانت تطاردهم في قصة الهجرة، وهذا اللفظ فيه سب للنبي ρ وأبي بكر على حد سواء وكذلك فيه سب لآل البيت الذين حواهم الكساء [٧]. وعلقت رؤوس الأكباش والحمر على أبواب الحوانيت، عليها قراطيس معلقة مكتوب عليها أسماء الصحابة، واشتد الأمر على أهل السنة، فمن تكلم أو تحرك قتل ومثَّل به [٨].

٢ – من جرائم العبيديين في الشمال الأفريقي:

ارتكب الشيعة الرافضة الإسماعيلية جرائم نكرة منها:

أ – غلو بعض دعاتهم في عبيد الله المهدي:

حتى أنه أنزله منزلة الإله وأنه يعلم الغيب، وأنه نبي مرسل، يقول بدر الدين بن قاضي شهبة: وكان له (أي المهدي) دعاة بالمغرب يدعون الناس إليه، وإلى طاعته، ويأخذون عليهم العهود ويلقون إلى الناس من أمره بحسب عقولهم، فمنهم من يلقون إليه أن المهدي ابن رسول الله وحجة الله

(١) المصدر نفسه (١٤٢/١٥).
(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ٢٥٣.
(٣) الدولة الفاطمية العبيدية للصَّلاَّبي ص ٤٧.
(٤) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٢٩١.
(٥) ترتيب المدارك (٣١٨/٢).
(٦) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٢٩١.
(٧) المصدر نفسه ص ٢٩١.
(٨) الكواكب الدرية في السيرة النورية ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

على خلقه، ومنهم من يلقون إليه أنه الله الخالق الرازق [١] وأما زعمهم بأنه إله فيظهر من أفعال دعاته وأقوالهم وأشعارهم، فقد كان هناك رجل يدعى أحمد البلوي النحاس: يصلي إلى رقادة أيام كان عبيد الله بها، وهي منه إلى المغرب، فلما انتقل إلى المهدية وهي منه إلى الشرق صلى إليها [٢] باعتبار أنها مكة المكرمة - شرفها الله - وهذا الاعتقاد كان سائداً عند كثير من الناس يومها، فهذا أحد شعراء بني عبيد يقول في المهدية بعد انتقال المهدي إليها:

ليهنك أيها الملك الهمام ::: قدوم فيه للدهر ابتسام
لقد عظمت بأرض الغرب دار ::: بها الصلوات تقبل والصيام
هي المهدية الحرم الموقى ::: كما بتهامة البلد الحرام
كأن مقام إبراهيم فيه ::: ترى قدميك إن عدم المقام
وإن لثم الحجيج الركن أضحى ::: لنا بعراص قصركم التثام
لك الدنيا وسلك حيث كنتم ::: فكلكم لها أبداً إمام [٣]

ومن الشعر أيضاً في تأليهه ما مدحه به محمد البديل حيث يقول:

حل برقادة المسيح ::: حل بها آدم ونوح
حل بها أحمد المصطفى ::: حل بها الكبش والذبيح
حل بها الله ذو المعالي ::: وكل شيء سواه ريح

وأما زعمهم أنه كان يعلم الغيب فيظهر من إيمان بعضهم حيث كان إذا أقسم يقول: وحق عالم الغيب والشهادة مولانا الذي برقاده [٤]. ومعرفة الغيب من خصوصيات الألوهية ولا يعلم الغيب إلا الله قال تعالى: **{قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ}** (النمل: ٦٥) وقال تعالى: **{وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}** (الأنعام، آية: ٥٩). كما أن الحلف لا يكون بمخلوق وإنما يكون بالخالق، قال رسول الله ρ: **«من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت. وجاءت الأحاديث في النهي عن الحلف بالآباء»** [٥].

ب – التسلط والجور:

وإعدام كل من يخالف مذهبهم، هذا بالإضافة إلى كل ما ذكرناه آنفاً على لسان القاضي عياض في طعنهم في الصحابة وتعليق رؤوس الأكباش - الدالة في زعمهم على أسماء الصحابة وغير ذلك من الأفعال القبيحة والشنيعة التي كانوا يقومون [٦] بها وكان إجبار الناس على الدخول في مذهبهم بوسيلة التخويف بالقتل وقد نفذوا حكم الإعدام في أربعة آلاف رجل مرّة واحدة قال القابسي: إن الذين

(١) البيان المغرب (٢٥٨/١ - ٢٥٩).
(٢) البيان المغرب (٢٢١/١).
(٣) المصدر نفسه (٢٢١/١).
(٤) كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب ص ٩٠.
(٥) جهود علماء المغرب ص ٣١٢.
(٦) مدرسة الحديث بالقيروان (٧٦/١).

ماتوا في دار البحر - سجن العبيديين - بالمهدية من حين دخل عبيد الله إلى الآن أربعة آلاف رجل في العذاب ما بين عالم وعابد ورجل صالح [١]. هذا عدا من كانوا يقتلون دون سجن ويمثل بهم في شوارع القيروان، فأثر ذلك على سير الحياة العلمية ومع ذلك فإن هذه المحنة لم تزد أهالي المغرب الإسلامي إلا عزيمة وصبراً واحتساباً وتمسكاً بالكتاب والسنة.

ت – تحريم الإفتاء على مذهب الإمام مالك:

حرّموا على الفقهاء الفتوى بمذهب الإمام مالك، واعتبروا ذلك جريمة يعاقب عليها بالضرب والسجن أو القتل أحياناً، ويعقب ذلك نوع من الإرهاب النفسي، حيث يدار بالمقتول في أسواق القيروان وينادى عليه: هذا جزاء من يذهب مذهب مالك، ولم يُبيحوا الفتوى إلا لمن كان على مذهبهم، كما فعلوا بالفقيه المعروف بالهزئي: أبو عبد الله محمد بن العباس بن الوليد المتوفى في عام تسع وعشرين وثلاثمائة [٢].

ث – إبطال بعض السنن المتواترة والمشهورة:

والزيادة في بعضها كما فعلوا في زيادة: حي على خير العمل: في الأذان وإسقاط صلاة التراويح [٣]، بعد أن تُرك الناس يصلونها عاماً واحداً، ولهذا ترك أكثر الناس الصلاة في المساجد ويا ويح من يسقط عبارة: حي على خير العمل من الأذان، من ذلك ما روي أن عروسى المؤذن ت ٣١٧هـ وكان مؤذناً في أحد المساجد، شهد عليه بعض الشيعة أنه لم يقل في أذانه: حي على خير العمل فكان جزاؤه أن قطع لسانه ووضع بين عينيه وطيف به في القيروان ثم قتل [٤]، إلا أن بعض العلماء فطن لكيد العبيديين وأغراضهم الخبيثة من وراء ذلك وهو إخلاء المساجد من المصلين، ودفعاً لهذه المفسدة أذنوا للمؤذنين أن يزيدوا: حي على خير العمل لأن تركها يؤدي إلى مفاسد أعظم ومن هؤلاء العلماء: أبو الحسن علي بن محمد بن مسرور العبدي الدباغ ت ٣٥٩هـ [٥]، الذي كان من أهل الورع والعبادة والخشوع فقد فطن لغرض العبيديين، فكانوا أن قال للمؤذنين: أذنوا على السنة في أنفسكم فإذا فرغتم فقولوا: حي على خير العمل، فإنما أراد بنو عبيد إخلاء المساجد لَفِعلكم هذا - وأنتم معذورون - خير من إخلاء المساجد [٦].

ج – منع التجمعات:

حرصت الدولة الفاطمية الرافضية على منع التجمعات خوفاً من الثورة والخروج عليهم ولذلك جعلوا بوقاً يضربونه في أول الليل فمن وُجد بعد ذلك ضرب عنقه، كما أنهم كانوا يفرقون الناس

(١) رياض النفوس (٥٦/٢).
(٢) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٣٠٩.
(٣) البيان المغرب (١٨٢/١ - ١٨٣).
(٤) ترتيب المدارك (٥٢٥/٢ - ٥٢٨).
(٥) ترتيب المدارك (٥٢٦/٢).
(٦) رياض النفوس (٢٩/٢).

الذين يجتمعون على جنازة من يموت من العلماء [١]، وهذا الفعل لا يزال مستمراً في الأنظمة القمعية البوليسية التي لا ترى إلا ما يراه حاكمها وطاغوتها وفرعونها{مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ} (غافر، آية: ٢٩).

ح – إتلاف مصنفات أهل السنة:

أتلفوا مصنفات أهل السنة، ومنعوا الناس من تداولها كما فعلوا بكتب أبي محمد بن أبي هاشم التُّجبي ت ٣٤٦هـ توفي وترك سبعة قناطير كتب، كلها بخط يده، فرفعت إلى سلطان بني عبيد فأخذها: ومنع الناس منها كيداً للإسلام وبغضاً فيه [٢].

خ – منع علماء أهل السنة من التدريس:

منعوا علماء أهل السنة من التدريس في المساجد، ونشر العلم، والاجتماع بالطلاب، فكانت كتب السنة لا تقرأ إلا في البيوت خوفاً من بني عبيد فكان أبو محمد بن أبي زيد، وأبو محمد بن التبان وغيرهما، يأتيان إلى أبي بكر بن اللباد شيخ السنة بالقيروان في خفية، ويجعلان الكتب في أوساطهما حتى تبتل بالعرق خوفاً من بنى عبيد [٣]. وهذا المسلك لا زالت الدول القمعية في العالم الإسلامي تمارسه على شعوبها فبعضها تمنع هذا الأمر كليًّا، وبعضها تسمح ببعض أمور الدين التي لا تصطدم مع مصالح الدول الكبرى.

س – عطلوا الشرائع، وأسقطوا الفرائض:

عمّن تبع دعوتهم حيث يقع إدخالهم إلى داموس ويدخل عليهم عبيد الله لابساً فروا مقلوباً داباً على يديه ورجليه فيقول لهم: (بَح) ثم يخرجهم ويفسر لهم هذا العمل بقوله: فأما دخولي على يدي ورجلي فإنما أردت بذلك أن أعلمكم أنكم مثل البهائم لا شيء، ولا ضوء ولا صلاة، ولا زكاة، ولا أي فرض من الفروض، وسقط جميع ذلك عنكم، وأما لباس الفرو مقلوبا فإنما أردت أن أعلمكم أنكم قلبتم الدين، وأما قولي لكم: بَح، فإنما أردت أن أعلمكم أن الأشياء كلها مباحة لكم من الزنى وشرب الخمر [٤].

ش – إجبار الناس على الفطر قبل رؤية الهلال:

وكانوا كثيراً ما يجبرون الناس على الفطر قبل رؤية هلال شوال (٥)، بل قتلوا من أفتى بأن لا فطر إلا مع رؤية الهلال كما فعلوا بالفقيه ابن الحُبلى قاضي مدينة برقة قال الذهبي في ترجمته: الإمام الشهيد قاضي مدينة برقة، محمد بن الحُبُلى أتاه أمير برقة، فقال: غداً العيد، قال: نرى الهلال، ولا أفطر الناس، وأتقلَّد إثمهم، فقال: بهذا جاء كتاب المنصور - وكان هذا من رأي العبيدية يفطِّرون

(١) المصدر نفسه (٤٢٣/٢).
(٢) مدرسة الحديث بالقيروان (٧٦/١).
(٣) رياض النفوس (٥٠٤/٢).
(٤) مدرسة القيروان (٧٣/١).
(٥) سير أعلام النبلاء (٣٧٤/١٥).

بالحساب، ولا يعتبرون رؤية - فلم يُر هلال، فأصبح الأمير بالطبول والبنود وأهبة العيد فقال

القاضي: لا أخرج ولا أصلى، فأمر الأمير رجلاً خطب. وكتب بما جرى إلى المنصور، فطلب القاضي إليه، فأحضر، فقال لـه: تَنصَّلْ، وأعفو عنك، فامتنع، فأمر، فُعلقَ في الشمس إلى أن مات، وكان يستغيث من العطش، فلم يُسقَ، ثم صلبوه على خشبة فلعنة الله على الظالمين. (١)

ع – إزالة آثار خلفاء السنة:

عمل حكّام الدولة الفاطمية في المغرب الإسلامي على إزالة آثار بعض من تقدمهم من الخلفاء السنيين فقد أصدر عبيد الله أمراً بإزالة أسماء الحكام الذين بنو الحصون والمساجد وجعل اسمه بديلاً منهم واستولى هذا الشيعي الرافضي الباطني على أموال الأحباس وسلاح الحصون، وطرد العبَّاد والمرابطين بقصر زياد الأغلبي وجعله مخزناً للسلاح (٢).

ل – دخول خيولهم المساجد:

من جرائم عبيد الله الكثيرة أن خيله دخلت المسجد، فقيل لأصحابها: كيف تدخلون المسجد؟ فقالوا: إن أرواثها وأبوالها طاهرة؛ لأنها خيل المهدي، فأنكر عليهم قيم المسجد، فذهبوا به إلى المهدي فقتله، يقول ابن عذارى: وامتحن عبيد الله في آخر حياته بعلة قبيحة: دود في آخر مخرجه يأكل أحشاءه فلم يزل به حتى هلك (٣) إن المسلمين المعاصرين يقرءون تاريخ الدولة الفاطمية العبيدية لا يعلمون إلا ما كتب لهم عن التاريخ السياسي لهذه الدولة، ذهب فلان وخلفه فلان، وأنها دولة تحب العلم وتنشره، والمقصود نشر كتب الفلاسفة ولكن القليل من يذكر بطش هؤلاء الباطنية بالعلماء من أهل السنة، بل إن الطلبة الذين يدرسون التاريخ الإسلامي يذكرون المعز لدين الله الفاطمي وكأنه بطل من أبطال التاريخ، وهذا كله نتيجة لغياب التفسير العقدي الإسلامي لتاريخنا، بل إن بعض المؤرخين الذين كتبوا لنا التاريخ تأثروا بمدارس الاستشراق، أو بالفكر الشيعي الرافضي، وبذلت لهم الأموال لطمس الحقائق وتزوير التاريخ، ولا زال الصراع الباطني والإسلامي ممتداً إلى يومنا هذا، فالأفكار لا تموت وإنما تتغير الأشكال والوجوه والمسوح وإن أعداء الإسلام لا يزالون يعلمون سراً وإعلاناً ليلاً ونهاراً للقضاء على العقيدة الصحيحة التي تلقتها الأمة من الحبيب المصطفى وأصحابه الغر الميامين وأهل بيته الطاهرين الطيبين رضي الله عنهم أجمعين.

٣ – أساليب المغاربة في مواجهة الدولة الفاطمية العبيدية:

لقد سلك علماء السنة المغاربة في مقاومة التشيع أساليب عديدة، منها المقاومة

(١) رياض النفوس (٢٩/٢).
(٢) أبعيد التاريخ نفسه محمد العبده ص ٣٩.
(٣) مقدمة حسين مؤنس على رياض النفوس ص ١٧.

السلبية، والمقاومة الجدلية والمقاومة المسلحة، وكانت هناك أنواع أخرى من المقاومة الجدلية والمقاومة المسلحة، وكانت هناك أنواع أخرى من المقاومة، مثل عن طريق التأليف وعن طريق نظم الشعر.. إلخ.

أ – المقاومة السلبية:

أولى الوسائل التي استعملها علماء المغرب السنة التي قاطع بها علماء المغرب كل ما له صلة بالتشيع، أو بالحكم القائم وتمثلت تلك المقاطعة في مقاطعة قضاة الدولة وعمالها، ورفض من استطاع منهم دفع الضرائب لها [١] ومن مظاهر هذه المقاومة مقاطعة حضور صلاة الجمعة التي كانت مناسبة للعن أصحاب رسول الله على المنابر: فتعطلت بذلك الجمعة دهراً بالقيروان [٢]، ومنهم من اكتفى بالدعاء عليهم كما فعل الواعظ عبد الصمد [٣]، وكما كان يفعل أبو إسحاق السبائي الزاهد إذا رقى رقية يقول بعد قراءة الفاتحة وسورة الإخلاص والمعوذتين: وببغضي في عبيد الله وذريته، وحبي في نبيك وأصحابه وأهل بيته اشف كل من رقيته [٤] ومن مظاهر المقاومة السلبية أيضاً: مقاطعة كل من يسير في ركب السلطان واعتزاله وكل من كانت له صلة بهذا السلطان أو سعى إلى تبرير وجوده عملاً بقوله تعالى: **{لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ}** (المجادلة، آية: ٢٢). فهذا خلف بن أبي القاسم البراذعي (ت نحو ٤٠٠ هـ)[٥] قام عليه فقهاء القيروان بصلته بملوك بني عبيد وقبوله هداياهم وتأليفه كتابا في تصحيح نسبهم، وزادت النقمة عليه عندما وجدوا بخطه الثناء على بني عبيد متمثلاً ببيت [٦] الحطيئة:

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا ::: وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

لذلك كله أفتى فقهاء القيروان بطرح كتبه وعدم قراءتها وإزاء ذلك اضطر هو إلى الهجرة إلى الصقلية حيث حصلت له خطوة كبيرة عند أميرها [٧].

ب – المقاومة الجدلية:

كانت المقاومة الجدلية هي أقوى وأوسع أنواع المقاومة التي قام بها علماء السنة المغاربة ضد الشيعة الرافضة المنحرفين، وقد سطع في سماء هذه المساجلات العلمية والمناظرات العقدية عدد كبير من العلماء، وكانوا لسان أهل السنة الناطق والذاب عن بيضة هذا الدين، وممن لمع نجمه في

(١) البيان المغرب (٢٧٧/١).
(٢) معالم الإيمان (٢٣٧/٣).
(٣) معالم الإيمان (٧١/٣).
(٤) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٣٢٤.
(٥) المصدر نفسه ص ٣٢٤.
(٦) المصدر نفسه ص ٣٢٤.
(٧) ترتيب المدارك (٥١٧/٢ - ٥٢٤) شجرة النور الزنكية (٩٥/١ - ٩٦).

ميدان المناظرة لبني عبيد حتى ضربت إليه أكباد الإبل من الأمصار المختلفة لعلمه بالذب عن مذهب أهل السنة وكان هذا الإمام - فضلاً عن براعته في الجدل والمناورة شجاعاً مقداماً لا يهاب الموت، من ذلك ما ذكره المالكي والدباغ من أن عبد الله المعروف بالمحتال [١]، صاحب القيروان قد شدد في طلب العلماء، فاجتمعوا بدار ابن أبي زيد القيرواني فقال لهم ابن تبان: أنا أمضي إليه، أبيع روحي لله دونكم، لأنه إن أتى عليكم وقع على الإسلام وهن عظيم[٢]. وفعلاً ذهب إليه وأقام عليه الحجة هو وجماعته الذين جاء بهم ليناظروه وبعد أن هزمهم في مجلس المناظرة لم يخجلوا أن يعرضوا عليه أن يدخل في نحلتهم ولكنه أبى وقال: شيخ له ستون سنة يعرف حلال الله وحرامه ويرد على اثنتين وسبعين فرقة يقال له هذا؟ لو نشرتموني في اثنتين ما رفقت مذهبي [٣]، ولما خرج من عندهم بعد يأسهم منه تبعه أعوان الدولة الفاطمية العبيدية وسيوفهم مصلتة عليه ليخاف من يراه من الناس على تلك الحال، فإذا به وهو تحت الضغط يهدي الناس ويقدم لهم النصيحة، ويقول لهم دون خوف ولا وحل: تشبشوا، ليس بينكم وبين الله إلا الإسلام، فإن فارقتموه هلكتم [٤]. وكان يخشى على العامّة من فتنة بني عبيد ويقول: والله ما أخشى عليهم الذنوب، لأن مولاهم كريم، وإنما أخشى عليهم أن يشكوا في كفر بني عبيد فيدخلوا النار [٥].

وممن اشتهروا بالذب عن الإسلام وأشهروا حجج الحقق وبراهين العدل وإقامة الحجة على دعاة الدولة الفاطمية أبو عثمان سعيد بن الحداد ت ٣٠٢هـ لسان أهل السنة وابن حنبل المغرب قال عنه السلمي: كان فقيها صالحاً فصيحاً متعبداً أوحد زمانه في المناظرة والرد على الفرقة [٦]. وقال عنه الخشني: كان يرد على أهل البدع المخالفين للسنة وله في ذلك مقامات مشهودة وآثار محمودة ناب عن المسلمين فيها أحسن مناب، حتى مثله أهل القيروان بأحمد بن حنبل [٧]. وقال عنه المالكي: وكانت له مقامات في الدين مع الكفرة المارقين أبي عبد الله الشيعي وأبي العباس أخيه وعبيد الله أبان فيها كفرهم وزندقتهم وتعطيلهم [٨]، حاولت الدولة الفاطمية بالمغرب إجبار الناس على مذهبهم بطريقة المناظرة وإقامة الحجة مرة والتهديد بالقتل مرة أخرى، فارتاع الناس من ذلك ولجؤوا إلى أبي سعيد وسألوه التقية فأبى وقال: قد أربيت على التسعين، وما لي في العيش حاجة، ولا بدلي من المناظرة عن الدين أو أن أبلغ في ذلك غدراً ففعل وصدق، وكان هو المعتمد عليه بعد الله في مناظرة الشيعة [٩]، ومن أشهر هذه المناظرات.

– التفاضل بين أبي بكر وعلي رضي الله عنهما:

(١) أحد عمال دولة بني عبيد.
(٢) معالم الإيمان (١١٣/٣).
(٣) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٣٢٧.
(٤) المصدر نفسه ص ٣٢٧.
(٥) معالم نفسه (٩١/٣).
(٦) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٣٢٨.
(٧) طبقات الخشني ص ١٩٩ معالم الإيمان (٢٠٩/٢).
(٨) رياض النفوس (٧٥/٢).
(٩) معالم الإيمان (٢٩٨/٢) جهود علماء المغرب ص ٣٢٩.

وأول هذه المناظرات كما يذكر صاحب المعالم حول التفاضل بين أبي بكر وعلي رضي الله عنهما فبعد الاجتماع بين ابن الحداد وأبي عبيد الله الشيعي؛ سأل أبو عبد الله الشيعي ابن الحداد: أنتم تفضلون على الخمسة أصحاب الكساء غيَرهم؟ يعني بأصحاب الكساء: محمداً ρ وعلياً وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم، ويعني بغيرهم: أبا بكر رضي الله عنه - فقال أبو عثمان: أيما أفضل؟ خمسة سادسهم جبريل عليه السلام؟ أو اثنان الله ثالثهما [١]؟ فبهت الشيعي.

– موالاة علي رضي الله عنه:

في هذه المناظرة أراد عبيد الله الشيعي أن يثبت أن الموالاة في قوله عليه الصلاة والسلام: **«من كنت مولاه فعلي مولاه»** [٢]. بمعنى العبودية: قال له: فما بال الناس لا يكونون عبيداً لنا فقال ابن الحداد: لم يرد ولاية رق وإنما أراد ولاية الدين، ونزع بقوله تعالى: **{مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا المَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ}** (آل عمران، آية: ٧٩ - ٨٠) فما لم يجعله الله لنبي لم يجعله لغير نبي، وعلي رضي الله عنه لم يكن نبياً وإنما كان وزيراً للنبي ρ [٣] هذه إشارات عابرة وهي جزء صغير من مجموع المناظرات التي دارت بين الفريقين.

ج – المقاومة المسلحة:

لم يكتف علماء المغرب بالمقاومة السلبية والمقاومة الجدلية، بل منهم من حمل السلاح وخرج ليقاتلهم، فهذا جبلة بن حمود الصدفي ترك سكن الرباط ونزل القيروان، فلما كلم في ذلك قال: كنا نحرس عدواً بيننا وبينه البحر، والآن حل هذا العدو بساحتنا، وهو أشد علينا من ذلك وقال: جهاد هؤلاء أفضل من جهاد أهل الشرك [٤]. واستدل بقوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الكُفَّارِ}** (التوبة: ١٢٣) ومنهم الإمام: أبو القاسم الحسن بن مفرج ت ٣٠٩هـ الذي كان من أوائل من خرج على الشيعة ومات شهيداً، قتله عبيد الله المهدي وصلب هو ورجل يدعى أبا عبد الله السدري الذي كان من الصالحين وكان قد بايع على جهاد عبيد الله وجعل يحث الناس على جهاده فبلغ خبره عبيد الله، فأمر بقتله [٥]، ثم إن العلماء خطوا خطوة أكبر بإصدار فتوى بوجوب قتال الدولة الفاطمية العبيدية وكان ذلك بعد اجتماع وتشاور بين علماء السنة وتحالفوا مع أهل القبلة ضد الفاطميين الذين حكموا عليهم بالكفر لمعتقداتهم الفاسدة قال الشيخ الفقيه أبو بكر بن عبد الرحمن الخولاني: خرج الشيخ أبو إسحاق السبائي رحمه الله - مع شيوخ إفريقية إلى حرب بني عبيد مع أبي يزيد، فكان أبو إسحاق يقول - ويشير بيده إلى عسكر أبي يزيد: هؤلاء من أهل القبلة وهؤلاء ليسوا من أهل القبلة -

(١) سنن الترمذي، وتحفة الأحوذي رقم ٣٧٩٧ حسن غريب.
(٢) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٣٣١.
(٣) معالم الإيمان (١٨٥/٢) جهود علماء المغرب ص ٣٣٧.
(٤) رياض النفوس (١٦٩/٢ - ١٧٢).
(٥) الدولة الفاطمية العبيدية للصَّلاَّبي ص ٧٨.

يريد عسكر بن عبيد - فعلينا أن نخرج مع هذا الذي من أهل القبلة لقتال من هو على غير القبلة، فإن ظفرنا بهم لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد، لأنه خارجي، والله عز وجل يسلط عليه إماماً عادلاً فيخرجه من بين أظهرنا ويقطع أمره عنا. والذين وخرجوا معه من الفقهاء والعباد: أبو العرب ابن تميم، وأبو عبد الملك مروان نصروات وأبو إسحاق السجائي وأبو الفضل وأبو سلمان ربيع بن القطان [١] وغيرهم كثير [٢] وفي الموعد المحدد خرج العلماء ومن ورائهم وجوه القوم وعامتهم في أعداد غفيرة لا يحصيهم عد، ولم يتخلف من العلماء والصلحاء أحد إلا العجزة، ومن ليس عليهم خروج، وكان ربيع القطان في طليعة الصفوف راكباً فرسه، وعليه آلة الحرب متقلداً مصحفه وهو يقول: الحمد لله الذي أحياني حتى أدركت عصابة من المؤمنين اجتمعوا لجهاد أعدائك وأعداء نبيك [٣] وقد أبلى العلماء في تلك المواجهة بلاء حسناً، وقدموا صوراً حقيقية للجهاد في سبيل الله لأعداء الإسلام، واستشهد منهم ما لا يقل على الثمانين عالماً، منهم ربيع القطان والمميس وغيرهما، وأظهروا شجاعة نادرة وتفانياً لا مثيل له في قتال عدوهم، وحققوا انتصاراً باهراً وكادوا يستولون على المهدية، لولا أن ساعة الغدر حلت ورجعت الكرة عليهم، حين خدعهم أبو يزيد وأسفر عن وجهه القبيح المناوئ لأهل السنة وأمر جنده أن ينكشفوا عنهم بقوله: أعداؤكم من قتلهم لا نحن فنستريح منهم [٤] وكان غرضه من تلك الفعلة الشنيعة والخدعة المنكرة: الراحة منهم لأنه فيما ظن إذا قتل شيوخ القيروان وأئمة الدين تمكن من أتباعهم فيدعوهم إلى ما شاء الله فيتبعونه [٥] فهزم شر هزيمة حيث انضم عدد غير قليل من جنده إلى صفوف عدوه ولم يبق له من الجند إلا القليل، وقتل شر قتلة، وكانت نهايته يوم ٣٠محرم سنة ٣٣٦هـ [٦]، وقد أثرت هذه المواجهة بين السنة والشيعة على الساحة المغربية فيما بعد، حيث استمرت المقاومة فيمن جاء بعدهم حتى بعد خروج بني عبيد من المغرب، فكانوا يبحثون عن مراكز وجود الشيعة، فإذا عثروا عليهم قتلوهم أموالهم، فقد ذكر ابن عذارى في البيان المغرب أنه: كان بمدينة القيروان قوم يتسترون بمذهب الشيعة من شرار الأمة انصرفت العامة إليهم من فورهم، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً رجالاً ونساءً وانبسطت أيدي العامة على الشيعة وانتهبت دورهم وأموالهم [٧]، ويصف القاضي عياض هذه الحادثة: وكان ابتداء ذلك اليوم الجمعة منتصف المحرم، قتلت العامة الرافضة أبرح قتل بالقيروان وحرقوهم وانتهبوا أموالهم، وهدموا دورهم وقتلوا نساءهم وصبيانهم، وجروهم بالأرجل، وكانت صيحة من الله سلطها عليهم، وخرج الأمر من القيروان إلى سائر بلادهم فقتلوا وأحرقوا بالنار، فلم يترك أحد منهم في إفريقية إلا من اختص [٨]. وهكذا كان هذا النوع من المقاومة هو أشد الأنواع وأنكاها، طهر الله به أرض

(١) المصدر نفسه ص ٧٨.
(٢) معالم الإيمان (٣٧/٣ - ٤٢).
(٣) البيان المغرب (٢١٨/١).
(٤) البيان المغرب (٢١٨/١).
(٥) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٣٤٤.
(٦) البيان المغرب (٢٦٨/١).
(٧) ترتيب المدارك (٦٢٥/٢).
(٨) المصدر نفسه

المغرب من بدعة التشيع الباطني الرافضي.

ح – المقاومة عبر التأليف:

وكانت المقاومة عبر التأليف من الوسائل المجدية والنافعة في مقاومة الشيعة والتي كان لها أثر طيب في إقلاقهم وقض مضاجعهم وإعلانهم الحرب على من يفعل ذلك، كما كان لها أثر في تبصير العامة بالحق وإرساء دعائم السنة وكانت هذه المؤلفات تنقسم إلى نوعين:

– المؤلفات التي تتناول مسائل العقيدة جملة وفق منهج أهل السنة والجماعة، ومن بين المسائل تناولها مسألة الإمامة عند أهل السنة وأفضلية أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهما، وشرعية خلافة الثلاثة خلافاً للشيعة الرافضة والترضي عن أصحاب رسول جميعاً من غير تفريق بينهم، واعتبارهم جميعاً عدولاً خلافاً للشيعة الذين يكفرونهم ويفسقونهم عدا نفر قليل منهم فهذا النوع من التأليف كان له أثر عميق في تبصير الناس بدينهم ونشر المذهب الحق فيهم، حتى أصبحوا يعتبرون كل من خالف هذه العقيدة مخالفاً للإسلام وخارجاً عن جماعة المسلمين يجب فيه كل ما يجب في الكافر من المعاداة والقتال والمقاطعة وغير ذلك من المعاملة، لعله يرتدع ويرجع ويتوب[١].

والنوع الثاني: المؤلفات التي ألفت للرد على الشيعة خاصة وعلى عقائدهم الباطلة: وهذا النوع من التأليف - كما سبق الحديث عنه - جاء نتيجة ظروف خاصة أوجبت على أهل السنة الرد عليهم، وتفنيد شبههم ودحض باطلهم من هذا الصنف من المؤلفات نذكر كتابي (الإمامة) اللذين ألفهما الإمام محمد بن سحنون، وقد سبق الحديث عنهما، وهما أعظم ما ألف في هذا الفن، يقول عيسى بن مسكين: وما ألف في هذا الفن مثلهما[٢]، وكتاب الإمامة للإمام إبراهيم بن عبد الله الزبيدي، وكتاب الرد على الرافضة له أيضاً، واللذان كانا السبب في محنته وسجنه وضربه من قبل الدولة الفاطمية العبيدية، فهذا النوع كان له أثره في المقاومة[٣].

خ – مقاومة شعراء أهل السنة:

إلى جانب وسيلة التأليف كانت هناك وسيلة نظم الشعر لهجو بني عبيد وذمهم، وقد برز في هذا الميدان كثير من الشعراء منهم: أبو القاسم الفزاري، فقد وصفهم ووصف سلوكهم فقال:

عبدوا ملوكهم وظنوا أنهم ::: نالوا بهم سبب النجاة عموماً
وتمكن الشيطان من خطواتهم ::: فأراهم عوج الضلال قويما
رغبوا عن الصديق والفاروق في ::: أحكامهم لا سلموا تسليما
واستبدلوا بهما ابن الأسود نابحاً ::: وأبا قدارة واللعين تميما
تبعوا كلاب جهنم وتأخروا ::: عمن اختارهم الإله نجوما

(١) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص ٣٤٩.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٤٩.
(٣) المصدر نفسه ص ٣٤٩.

أمـــن اليهـــود؟ أم النصـــارى؟ أم هـــم ::: دهريـــة جعلـــوا الحـــديث قـــديما
أم هـــم مـــن الصـــابئين أم مـــن عصـــبة ::: عبـــدوا النجومـــا وأكثـــروا التنجيمـــا
أم هـــم زنادقـــة معطلـــة رأوا ::: أن لا عـــذاب غـــداً ولا تنعيمـــا
أم عصـــبة ثنويـــة قـــد عظمـــوا ::: النـــورين عـــن ظلمـــاتهم تعظيمـــا
ســـبحان مـــن أبلـــى العبـــاد بكفـــرهم ::: وبشـــركهم حقبـــاً وكـــان رحيمـــا
يـــا رب فـــالعنهم ولقهـــم ::: بـــأبي يزيـــد مـــن العـــذاب أليمـــا [1]

ومن أشهر ما قاله قصيدته الرائية التي انتشرت في الآفاق والبلدان والتي قال فيها:

عجبـــت لفتنـــة أعمـــت وعمـــت ::: يقـــوم بهـــا دعـــي أو كفـــور
تزلزلـــت المـــدائن والبـــوادي ::: لهـــا وتلونـــت منهـــا الـــدهور
وضـــاقت كـــل أرض ذات عـــرض ::: ولـــم تعـــن المعاقـــل والقصـــور
فنجـــى القيـــروان وســـاكنيها ::: إلـــه دافـــع عنهـــا قـــدير
أحـــاط بأهلهـــا علمـــاً وخبـــراً ::: وميـــز مـــا اكتنـــه الصـــدور
وجللهـــم بعافيـــة وأمـــن ::: وأســـبل فوقهـــا ســـتر ســـتير
وأثبـــت جلـــة العلمـــاء فيهـــا ::: بحـــار لا تعـــد ولا بحـــور
ومنهـــا ســـادة العلمـــاء قـــدما ::: إذا عُـــدُّوا ولـــيس لهـــا نظيـــر
وفيهـــا القـــوم عبـــاد خيـــارا ::: فقـــد طـــاب الأوائـــل والأخيـــر
هـــم افتكـــوا ســـبايا كـــل أرض ::: وفـــادوا مـــا اســـتبد بـــه المغيـــر
كفينـــاهم عظائمهـــا جميعـــاً ::: فزالـــت عـــنهم تلـــك الشـــرور
وســـكنَّا قلوبـــاً خافقـــات ::: أمـــات عروقهـــا ضـــر ضـــرير
وأوينـــا وآســـينا وكنـــا ::: لهـــم أهـــلاً وأكثـــرهم شـــطير
فبـــات طعامنـــاً لهـــم طعامـــاً ::: هنـــاك ودُورنـــا للقـــوم دور
وكـــان لنـــا ثـــواب الله ذُخـــراً ::: وقـــام بشـــكرنا مـــنهم شـــكور
ولـــولا القيـــروان وســـاكنوها ::: لغـــاب طعـــامهم والمـــخ [2] ريـــرُ
ولـــيس لنـــا كمـــا لهـــم حصـــون ::: ولا جبـــل أعاليـــه وعـــور
ولا ســـور أحـــاط بنـــا ولكـــن ::: لنـــا مـــن حفـــظ رب العـــرش سُـــورُ
ولا نـــأوي إلـــى بحـــر وإنـــا ::: إذا قضـــى القضـــا تُتحَـــى البحُـــورُ
ولكنـــا إلـــى القـــرآن نـــأوي ::: وفـــي أيماننـــا البـــيض الـــذكور
عقـــائق كـــالبوارق مرهفـــات ::: بهـــا تحمـــي الحـــرائم والثغـــور
وسُـــمر فـــي أعـــاليهن شـــهب ::: بهـــا ظمـــأ مواردهـــا النحـــور

إلى أن قال:

وإنـــا بعـــد متخـــوف وأمـــن ::: نحـــب إذا تشـــعبت الأمـــور
رســـول الله والصـــديق حبـــا ::: بـــه ترجـــى الســـعادة والبحـــور
وبعـــدهما نحـــب القـــوم طُـــرًّا ::: ومـــا اختلفـــوا فـــربهم غفـــور
ألا بـــأبي وخالصـــتي وأمـــي ::: محمـــد البشـــير لنـــا النـــذير

(١) رياض النفوس (٢/٤٩٤ - ٤٩٥).
(٢) رياض النفوس (٢/٤٩٣).

سـأهدى مـا حيـيـت لـه ثنـاء ::: مـع الركبـان ينجـد أو يغـور[1]

٤ – المعز لدين الله الفاطمي ودخوله مصر:

كان يتابع أحوال حكام وأمراء مصر عن كثب، وأصبحت نفسه تسول له الاستيلاء على مصر، وبموت كافور الإخشيدي في سنة ٣٥٥هـ اضطربت الديار المصرية، فاقتنص المعز الفرصة ولم يجعلها تمر مر السحاب، فعزم ودبر وأقدم على حفر الآبار والقصور فيما بين القيروان إلى حدود مصر، وحشد الجيوش العظيمة، التي كانت تزيد عن مائة ألف، وأمر المعز كل أمرائه وولاته أن يسمعوا ويطيعوا ويترجلوا في ركاب جوهر الصقلي، وتحركت الجيوش العبيدية لنقل المذهب الباطني إلى مصر ليتخلص من الأزمات والثورات والصراعات العنيفة التي قادها علماء أهل السنة في خمس عقود متتالية في الشمال الإفريقي، رافضين المذهب الباطني معلنين عقائد أهل السنة والجماعة، فاستفاد المعز من ضعف الحكم الإخشيدي التابع للدولة العباسية فرمى بسهامه المسمومة، ودفع إليها جيوشه المحمومة طلبا من أعوانه وسعياً للقضاء على الدولة العباسي وفي جمادى الآخرة سنة ٣٥٨هـ استطاعت جيوش المعز دخول مصر بقيادة جوهر الصقلي الذي لم يجد أي عناء في ضمها لأملاك العبيديين وجوهر الصقلي هذا هو الذي بنى الأزهر الذي تم بناؤه سنة ٣٦١هـ ليكون حصناً لإعداد دعاة المذهب الإسماعيلي الباطني وبعد أن مهدت مصر للمعز الفاطمي العبيدي جهز جيوشه وحاشيته وأهله وأمواله وسار مفارقاً شمال إفريقيا إلى مصر ليتولى أمرها فأسند زعامة الشمال الإفريقي إلى الأمير الضهاجي بلكين بن زيري وضم المعز إلى مصر كلا من طرابلس وسرت وبرقة وكان معه شاعره الذي غالى في مدح المعز محمد بن هانئ الأندلسي الذي قال:

فكأنمـا أنـت النبـي محمـد ::: وكأنمـا أنصـارك الأنصـار
مـا شـئت أنـت لا مـا شـاءت الأقـدار ::: فـاحكم فأنـت الواحـد القهـار
هـذا الـذي تجـدي شـفاعته غـداً ::: حقًّـا وتُخمـد إن تـراه النـار

ومن شعره في المعز:

النـور أنـت وكـل نـور ظلمـة ::: والفـوق أنـت وكـل فـوق دون
فـارزق عبـادك فضـل شـفاعة ::: وأقـرب بهـم زُلفـى فأنـت مكـين

ومنه:

تـدعوه منتقمـاً عزيـزاً قـادراً ::: غفـاراً موبقـة الـذنوب صـفوحاً
أقسـمت لـولا أن دُعيـت خليفـة ::: لـدُعيت مـن بعـد المسـيح مسـيحاً
شـهدت بمفخـرك السـموات العـلا ::: وتنـزل القـرآن فيـك مـديحاً

ومنه:

وعلمـت مـن مكنـون سـر الله مـا ::: لـم يـؤت فـي الملكـوت ميكـائيلا
لـو كـان آتـى الخلـق مـا أوتيتـه ::: لـم يخلـق التشـبيه والتـأويلا

(١) رياض النفوس (٤٩٤/٢).

وكانت بداية رحلة المعز نحو مصر في ٣٦٢هـ وقتل ابن هانئ في برقة في رجب سنة ٣٦٢هـ وهو في الثانية والأربعين من عمره ووجدوا جثته مرمية رمي الكلاب على ساحل بحر برقة وتأسف المعز على قتله وقال: هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك [١]، واستمر المعز في سيره حتى قارب الحدود المصرية، ووصل الإسكندرية يوم ٢٣ من شعبان سنة ٣٦٢هـ واستقبلته وفود عظيمة من أعيان القادة والزعماء والحكام في مصر وامتد ملك المعز من سبتة بالمغرب إلى مكة بالمشرق يأتمر بأوامره سكان سواحل المحيط الأطلنطي وبقي المعز في مصر سنتين ونصف وتوفي بالقاهرة في السابع من ربيع الأول سنة ٣٦٥هـ ودامت ولايته بإفريقية ومصر ثلاثاً وعشرين سنة [٢]. قال الذهبي: ظهر في هذا الوقت الرفض وأبدى صفحته وشمخ بأنفه في مصر والشام والحجاز والغرب بالدولة العُبيدية، وبالعراق والجزيرة والعجم بني بُويّه، وكان الخليفة المطيع ضعيف الرتبة مع بنى بويه وضعف بدنه ثم أصابه فالج، وخَرَسٌ فعزلوه، وأقاموا ابنه الطائع لله، وله السكة والخطبة، وقليل من الأمور فكانت مملكة المعز أعظم وأمكن [٣].

٥ – زوال الدولة الفاطمية من شمال إفريقيا:

استطاع بعض فقهاء المالكية أن يصلوا إلى ديوان الحكم في دولة ضهاجة التابعة للدولة الفاطيمة بمصر وأثروا في بعض الوزراء والأمراء - الذين كان لهم الفضل بعد الله في تخفيف ضغط الدولة على علماء أهل السنة واستطاع العلامة أبو الحسن الزجال أن يؤثر في الأمير المعز بن باديس الضهاجي في تربيته على منهج أهل السنة، وأعطت هذه التربية ثمارها بعدما تولى المعز إفريقية في ذي الحجة سنة ٤٠٦هـ وكان عمل العلامة أبي الحسن في السر بدون أن يعلم به أحد من الشيعة الرافضة وكان هذا العالم فاضلاً ذا خلق ودين وعقيدة سليمة ومبغض للمذهب الشيعي الباطني واستطاع أن يغرس التعاليم الصحيحة في نفسية وعقلية وفكر المعز بن باديس الذي تمّ على يديه القضاء على مذهب الشيعة الإسماعيلية في الشمال الإفريقي وقد وصف الذهبي المعز بن باديس فقال: وكان ملكاً مهيباً، وسريا شجاعاً عالي الهمة، محباً للعلم، كثير البذل، مدحه الشعراء وكان مذهب الإمام أبي حنيفة قد كثر بإفريقية فحمل أهل بلاده على مذهب مالك حسماً لمدة الخلاف، وكان يرجع إلى الإسلام، فخلع طاعة العبيدية وخطب للقائم بأمر الله العباسي، فبعث إليه المستنصر يتهدده فلم يخفه [٤]، ورد المعز بن باديس على خطاب المستنصر الفاطمي بمصر الذي هدده فيه وقال له: هلا اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء في كلام طويل، فأجابه المعز: إن آبائي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن يتملكه أسلافك ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم ولو أخروهم لتقدموا

(١) الفتح العربي في ليبيا ص ٣٦٢.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٦٢.
(٣) سير أعلام النبلاء (١١٣/١٥، ١١٤).
(٤) المصدر نفسه (١٤٠/١٨).

بأسيافهم [١]، وبينت لنا كتب التاريخ أن المعز بن باديس تدرج في عدائه للشيعة الرافضة الباطنية ولحكام مصر وظهر ذلك في عام ٤٣٥هـ عندما وسع قاعدة أهل السنة في جيشه وديوانه ودولته، فبدأ في حملات التطهير للمعتقدات الباطنية ولمن يتلذذ بسبب، أصحاب رسول الله ρ، فأوعز للعامة وللجنود بقتل من يظهر الشتم والسب لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فسارعت العامة في كل الشمال الإفريقي للتخلص من بقايا العبيديين ليصفى الشمال الإفريقي من المعتقدات الفاسدة الدخيلة عليه وأشاد العلماء والفقهاء بهذا العمل الذي أشرف على تنفيذه المعز بن باديس رحمه الله وذكر الشعراء أشعاراً في مدح المعز، فقد قال القاسم بن مروان في تلك الحوادث:

وسوف يقتلون بكل أرض ::: كما قتلوا بأرض القيروان

وقال آخر:

يا معز الدين عش في رفعة ::: وسرور واغتباط وجذل
أنت أرضيت النبي المصطفى ::: وعتيقاً في الملاعين السفل
وجعلت القتل فيهم سنة ::: بأقاصي الأرض في كل الدول [٢]

واستمر المعز بن باديس في التقرب إلى العامة وعلمائهم وفقهائهم من أهل السنة وواصل السير في تخطيطه للانفصال الكلي عن العبيديين في مصر، فجعل المذهب المالكي هو المذهب الرسمي لدولته وأعلن انضمامه للخلافة العباسية وغيَّر الأعلام إلى العباسيين وشعاراتهم وأحرق أعلام الدولة الفاطمية وشعاراتهم وأمر بسبك الدراهم والدنانير التي كانت عليها أسماء العبيديين والتي استمر الناس يتعاملون بها ١٤٥سنة وأمر بضرب سكة أخرى كتب على أحد وجهيها: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وكتب على الآخر:**{وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ}** (آل عمران، آية: ٨٥) وقضى المعز بن باديس على كل المذاهب المخالفة لأهل السنة من الصفرية والنكارية والمعتزلة، والإباضية وفي سنة ٤٤٣هـ انضمت برقة كلها إلى المعز بن باديس بعد أن أعلن أميرها جبارة بن مختار الطاعة له وكان أول من قاد حملة التطهير على الشيعة الإسماعيلية في طرابلس وحارب تقاليدهم الباطلة ودعوتهم المضللة هو العلامة علي بن محمد المنتصر وكنيته أبو الحسن المتوفى عام ٤٣٢هـ [٣].

٦ – جهود السلاجقة في حماية العراق من التشيع الرافضي الباطني:

كانت الدولة الفاطمية تسعى للسيطرة على العراق والمشرق ولذلك قامت بإرسال الدعاة إليها، فقد واصل الخلفاء الفاطميون جهودهم في نشر دعوتهم مستغلين الاضطراب الذي ساد بلاد العراق، فأرسل الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله الدعاة إلى بغداد سنة ٤٢٥هـ، فاستجاب لهم كثير من الناس [٤]، وازداد نشاط الدعاة في بلاد المشرق الإسلامي على عهد المستنصر بالله الفاطمي، فعهد

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، لطاهر الزاوي ص ٢٨٩.
(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، لطاهر الزاوي ص ٢٨٩.
(٣) تاريخ الفتح العربي ص ٢٩٠، ٢٩١.
(٤) دولة السلاجقة للصَّلاَّبي ص ٥٤.

إلى دعاته بالرحيل إلى فارس وخراسان وما وراء النهر، ومن أشهر دعاة وفلاسفة المذهب الشيعي الإسماعيلي الفاطمي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي وعرف أحياناً بالمؤيد فقط، وقد نجح هذا الداعية في التأثير على البساسيري أحد القادة العسكريين في الدولة العباسية وقد استطاع البساسيري أن يستولى على بغداد ويزيح الخليفة القائم بأمر الله وإقامة الخطبة فيها للفاطميين وانقطعت دولة بني العباس من بغداد وأخرج الخليفة وحُمل إلى الأنبار وحبس بالحديثة عند صاحبها مهارش بن مجلي العقيلي فتولى خدمة الخليفة بنفسه وكان أحد وجوه بني عقيل، وخطب لبني عبيد - الفاطميين في بغداد أربعين جمعة في ولاية المستنصر [١]. وحاول البساسيري نقض الاتفاق الذي عقده مع قريش بن بدران وعزم على أخذ الخليفة العباسي وترحيله إلى مصر، إلا أن قريشاً تصدى لهذه المحاولة وعهد إلى ابن عمه الأمير محيي الدين بن مهارش العقيلي - صاحب حديثة بالتحفظ على الخليفة وتأمين حياته، وعلى الرغم من ذلك فلم يسمح البساسيري للخليفة القائم بأمر الله بالرحيل إلى حديثة إلا بعد أن أرغمه على كتابة اعتراف بعدم أحقية بني العباس في الخلافة الإسلامية مع وجود بني فاطمة الزهراء عليها السلام[٢]، ولم يكتف البساسيري بذلك بل استولى على ثوب الخليفة وعمامته وشباكه [٣]، وأنفذها إلى الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، وكان البساسيري قد شرع في استخدام طائفة من العوام ودفع إليهم السلاح من دار الخلافة العيّارين وأطمعهم في نهب دار الخلافة ونهب أهل الكرخ - الشيعة - دور أهل السنة بباب البصرة، ونهبت دار قاضي القضاة الدّمغاني، وهلك أكثر السَّجلاَّت والكتب الحكيمة وأبيعت للعطارين، ونهبت دور المتعلقين بالخليفة وأعادت الروافض الأذان بحيَّ على خير العمل، وأُذِّن به في سائر جوامع بغداد في الجُمُعات والجماعات، وخطب ببغداد وضربت له السَّكةُ على الذهب والفضة وحُوصرت دار الخلافة واعتقل رئيس الرؤساء أبو القاسم بن المسلمة ووبخه البساسيري ولامه لوماً شديداً، ثم ضربه ضرباً مبرحاً واعتقله مهانا عنده ونهبت العامة دار الخلافة، فلا يُحصى ما أخذوا منها من الجواهر والنَّفائس والدَّيباج والأثاث والثياب وغير ذلك مما لا يُحَدُّ ولا يوُصف وفي يوم عيد الأضحى في سنة ٤٥٠ هـ ألبس البساسيري الخطباء والمؤذنَّين البياض، وعليه هو وأصحابه كذلك وعلى رأسه الألوية المستنصرية والمطارد المصرية، وخطب للمستنصر صاحب مصر، والشيعة الرّافضة في غاية السرور والأذان في سائر العراق بحيَّ على خير العمل، وانتقم البساسيري من أعيان أهل بغداد انتقاماً عظيماً، وغرَّق خلقاً ممَّن كان يعاديه وبسط على آخرين الأرزاق والعطايا ولما كان يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذي الحجة أحضر إلى بين يديه الوزير أبو القاسم بن المسلمة الملقّبُ برئيس الوزراء وعليه جُبَّة صوف وطرطور من لبد أحمر وفي رقبته مخنقة من جلود كالتعاويذ، فأركب جملاً [٤]، وطيف به في البلد وخلفه من يصفعه بقطعة من جلد، وحين اجتاز بالكرخ نثروا عليه خُلْقان المداسات وبصقوا في وجهه ولعنوه وسبُّوه وهذه هي عادتهم عندما يتمكنون من مخالفيهم في كل زمان ومكان، وأوقف

(١) أخبار الدول المنقطعة (٣/٤٣. ٠).
(٢) الخطط للمقريزي (١/٤٣٩).
(٣) الشباك: هو الشرفة التي يجلس فيها الخليفة ويتوكأ بيديه على حافته.
(٤) البداية والنهاية (١٥/٤٥٩).

بإزاء دار الخلافة وهو في ذلك يتلو {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ المُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (آل عمران، آية: ١٦) فألبس جلد ثور بقرنيه وعُلّق بكلّوب في شدقيه ورفع إلى الخشبة حيًّا، فجعل يضطرب إلى آخر النهار، فمات رحمه الله وكان آخر كلامه: الحمد لله الذي أحياني سعيداً وأماتني شهيداً [١].

من خصائص النفسية الشيعية الرافضة الباطنية الثابتة عبر التاريخ اتباع أسلوب التذلل والتمسكن والتودد عند الضعف ولكن متى استشعروا القوة، فإنها تمارس أشد أنواع الطغيان والنهب والبطش والانتقام وكان طغرل بك السلطان السلجوقي الذي أزاح البويهيين كان خارج العراق بجيوشه يحارب المنشقين عنه ويمكن لدولته ولما قضى على الفتن كرّ بجيوشه على بغداد وأعاد الخليفة العباسي إلى الخلافة بعد فكاكه من أسره واستطاع ملاحقة البساسيري وقتله وعادت العراق إلى الخلافة العباسية السنية من جديد وقد فصلت هذه الأحداث التاريخية في كتابي دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي. وقد أدرك السلاجقة الخطر الذي يتهددهم من وراء الدعوة الفاطمية في بلدان الخلافة العباسية، لذلك اتبعوا سياسة حكيمة بعد أن قبضوا على زمام الأمور في بغداد تتمثل في مناهضة الدعوة الفاطمية [٢]، ودعاتها بالحزم والشدة فتعقبوا دعاة الفاطمية الذين قاموا بنشر الدعوة الفاطمية في بلاد فارس - كما قاموا بإقصاء المتشيعين للمذهب الإسماعيلي على دواوين الحكومة والوظائف الدينية وعينوا من أهل السنة بدلاً منهم [٣].

٧ – المدارس النظامية ودورها في الإحياء السني والتصدي للفكر الشيعي الرافضي:

بدأ التفكير الفعلي في إنشاء هذه المدارس النظامية للوقوف أمام المد الشيعي الإمامي والإسماعيلي الرافضي عقب اعتلاء السلطان ألب أرسلان عرش السلاجقة في عام ٤٥٥هـ فقد استوزر هذا السلطان رجلاً قديراً وسنياً متحمساً هو الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي الملقب بنظام الملك، فرأى هذا الوزير أن الاقتصار على مقاومة الشيعة الإمامية والإسماعيلية الباطنية سياسياً لن يكتب له النجاح إلا إذا وازى هذه المقاومة السياسية مقاومة فكرية، ذلك أن الشيعة إمامية كانوا أو إسماعيلية نشطوا في هذه الفترة وما قبلها إلى الدعوة لمذهبهم بوسائل فكرية متعددة وهذا النشاط الفكري ما كان ينجح في مقاومته إلا نشاط سني مماثل يتصدى له بالحجة والبرهان [٤] فقد كانت الدولة الفاطمية تقوم بإعداد الدعاة من خلال جامع الأزهر الذي جعلوا منه مؤسسة تعليمية تعنى بنشر مذهبهم في عام ٣٧٨هـ[٥].

هذا بالإضافة إلى البرامج التعليمية التي كانت تعد بعناية خاصة في عاصمة الدولة الفاطمية لإعداد الدعاة وتثقيفهم ثقافة مذهبية واسعة قبل إرسالهم إلى البلاد الإسلامية لنشر المذهب

(١) دولة السلاجقة للصَّلاَّبي ص ٨٢.
(٢) المصدر نفسه ص ٦٨.
(٣) المصدر نفسه ص ٦٨.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٩١.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٩١.

الإسماعيلي وكان لذلك أثر في رواج هذا المذهب في بعض مناطق الدعوة [١] لذلك كله فكر نظام الملك في أن يقاوم النفوذ الشيعى بنفس الأسلوب الذى ينتشر به ومعنى ذلك أنه رأى أن يقرن المقاومة السياسية للشيعة بمقاومة فكرية أيضاً [٢]، وتربية الأمة على كتاب الله وسنة رسوله ρ ووعقيدة أهل السنة والجماعة المستمدة من الوحى الإلهى ومن هنا كان تفكيره في إنشاء المدارس النظامية التى نسبت إليه، لأنه الذى جد في إنشائها وخطط لها، وأوقف عليها الأوقاف الواسعة واختار لها الأكفاء من الأساتذة فكان من الطبيعي أن تنسب إليه من دون السلاجقة [٣] وقد وفق الله نظام الملك توفيقاً قل نظيره فى التاريخ السياسى والعلمى والديني فقد عاشت مدارسه أمداً طويلاً وعلى الخصوص نظامية بغداد التى طاولت الزمن زهاء أربعة قرون إذ كان آخر من عرفنا ممن درس فيها صاحب القاموس الفيروز آبادي المتوفى سنة ٨١٧هـ حيث زالت فى نهاية القرن التاسع الهجرى [٤] وأدت رسالتها من تخريج العلماء على المذهب السنى الشافعى وزودت الجهاز الحكومى بالموظفين ردحاً من الزمن وبخاصة دوائر القضاء والحسبة والاستفتاء وهى أهم وظائف الدولة فى ذلك العصر وانتشر هؤلاء فى العالم الإسلامى حتى اخترقوا حدود الباطنية فى مصر وبلغوا الشمال الإفريقى ودعموا الوجود السنى بها لقد تخرج من هذه المدارس جيل تحقق على يديه معظم الأهداف التى رسمها نظام الملك فوجدنا كثيراً من الذين تخرجوا منها يرحلون الى أقاليم أخرى ليقوموا بتدريس الفقه الشافعى والحديث الشريف وينشروا عقيدة أهل السنة في الأمصار التى انتقلوا إليها أو يتولوا مجالس القضاء والفتيا أو يتولوا بعض الوظائف الإدارية الهامة فى دواوين الدولة وينقل السبكي عن إسحاق الشيرازي - أول مدرس بنظامية بغداد بقوله خرجت إلى خراسان فما بلغت بلدة ولا قرية إلا كان قاضيها أو مفتيها أو خطيبها تلميذي أو من أصحابي [٥]، وقد ساهمت هذه المدارس فى إعادة دور منهج السنة فى حياة الأمة بقوة وكان أبرز آثارها أيضا تقلص نفوذ الفكر الشيعى وخاصة بعد أن خرجت المؤلفات المناهضة له من هذه المدارس وكان الإمام الغزالى على قمة المفكرين الذين شنوا حرباً شعواء على الشيعة الرافضة [٦]. وقد مهدت المدارس النظامية بتراثها ورجالها وعلمائها السبيل ويسرته أمام نور الدين زنكى والأيوبين حتى يكملوا المسيرة التى من أجلها أنشئت النظاميات وتتمثل فى العمل على سيادة الإسلام الصحيح وخاصة فى المناطق التى كانت موطنًا لنفوذ الشيعة فى تلك المرحلة كالشام ومصر وغيرها - إن الأخطاء العظيمة التى تواجة الأمة اليوم المشروع الباطنى الجديد النشط فى أنحاء المعمورة وقد استهدف عقيدة الأمة وكتاب ربها وسنة نبيها وتاريخها وعظمائها فهل نستلهم الدروس ونستخرج الصحيح الذى جاء به محمد ρ فيكون من حكامنا مثل ألب أرسلان فى شجاعته ومن وزرائنا كنظام الملك فى همته وغيرته ومن علمائنا

(١) التاريخ السياسي والفكري ص ١٧٩.
(٢) المصدر نفسه ص ١٧٩.
(٣) المصدر نفسه ص ١٧٩.
(٤) نظام الملك ص ٤٠١.
(٥) دولة السلاجقة للصَّلاَّبي ص ٣٩٠.
(٦) رجال الفكر والدعوة (٢٠٤/١) الغزالي للقرضاوي ص ٥٧.

كالجويني والغزالي والبغوي والجيلاني فى دفاعهم عن الكتاب والسنة والصحابة وقضايا الفكر الإسلامى الصحيح وتوظف الوسائل الحديثة فى بث عقائد الإسلام الصحيحة وتاريخه الموثق وفكره البديع من خلال الفضائيات والإنترنت والمطابع والجرائد والمجلات والكتب والندوات والمؤتمرات والمناهج والمدارس والجامعات ووسائل الدعوة بأنواعها نريد بذلك وجه الله والدار الآخرة ورفقة النبيين والصدقين والشهداء والصالحين.

جهود الإمام فى دحر الشيعة الباطنية:

إذا كانت إحدى ثمرات المدارس النظامية أنها مهدت الطريق لسيادة المذهب السني كان من أبرز آثارها أيضاً تقلص نفوذ الفكر الشعيى وخاصة بعد أن خرجت المؤلفات المناهضة له من هذه المدارس وكان الإمام الغزالى - العالم السنى على قمة المفكرين الذين شنوا حربا شعواء على الشيعة الرافضة الباطنية إذ يذكر هو أنه ألف فى ذلك كتباً عدة أشهرها فضائح الباطنية الذى كلف بتأليفه فى ٤٨٧هـ من قبل الخليفة المستظهر [١] على أن الشيء المثير للإعجاب هو شجاعة الغزالى فى حملته على الإسماعيلية الباطنية حيث جاءت فى وقت انتشر فيه دعاتهم فى فارس وتزايد خطرهم حتى أقاموا الحصون والقلاع وهددوا أمن الناس وسلامتهم وقاموا بالاغتيالات على نطاق واسع فشملت كثيراً من الساسة المفكرين وعلى رأسهم نظام الملك نفسه والغزالي قام بهذه الحملة بتوجيه من السلطة مع رغبة الغزالي العالم السني فى القيام بواجبه فى الدفاع عن الإسلام الحقيقى - وهذا شيء جميل لما تلتقى جهود السلطة السياسية مع علمائها فى تحقيق أهداف الإسلام من خلال مؤسسات نافعة للمجتمع والدولة، كالذي قامت به المدارس النظامية في مقاومة الفكر والنفوذ الشيعي الباطني فقد كانت الدولة الفاطمية قد تدرعت بالفلسفة والعقيدة الباطنية وظهرت في مظهر ديني سياسي، فكانت كما يقول الأستاذ الندوي - أشد خطراً على الإسلام من الفلسفة، فقد كانت الفلسفة تعيش في برجها العاجي بعيداً عن الشعب والجمهور [٢]، وأما الباطنية فكانت تتسرَّب إلى المجتمع وتنفث سمومها فيه، وكان لها الإغراءات المادية القوية، ولم يكن في العالم الإسلامي في آخر القرن الخامس أحد أجدر بالرد عليها والكشف عن أسرارها ونقض ما تبني عليه دعوتها من الغزالي وكان لكتابات الغزالي أثر قوي في مجال الرد على الباطنية، فقد استطاع بفكره القوي وبما نال من شهرة أن يكون ذا تأثير قوي في مقاومة الباطنية وأن يناصر المذهب السني، فقد استطاع توظيف العلوم الشرعية والعلوم العقلية من الفلسفة والمنطق والكلام في نسف جذور المذهب الباطني وقال فيهم كلمته التي طار بها الركبان وسارت مسير الأمثال: ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر المحض، فهم يتسترون بالتشيع وما هم من الشيعة من شيء وإنما هو قناع يخفون وراءه كيدهم لأهل الإسلام [٣] ومما يذكر للغزالي: استمراره على نقد هذه الطائفة وكشف اللثام عن تناقض أفكارها وفضائح أعمالها وسوء نواياها، برغم ما كان معلوماً في ذلك الوقت أن هذا النقد يكلفه حياته، وقد رأى بنفسه مصرع رجل

(١) الجهاد من الهجرة إلى الدعوة والدولة ص ١٤٧.
(٢) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ص ٦٠.
(٣) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ص ٦٠.

الدولة الكبير الوزير نظام الملك وكان الشيعة الباطنية تهدد كل من يرونه خطراً عليهم من رجال الملك أو رجال العلم بالانتقام في صورة طعنة خنجر، أو سم يدس في طعام أو غير ذلك من الأساليب التي أتقنوها ونفذوها بكل دقة وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على شجاعة الغزالي في صدعه بالحق، ومواجهة الباطل، مهما تكن النتيجة ولن يصيبه إلا ما كتب الله له [١]. وهذا درس وتذكير للعلماء المعاصرين أن يصدقوا الله في مقاومة الباطنيين الجدد، وقد رأيت بعض المحسوبين على العلماء يخشونهم، ويخافون من القتل والاغتيال أو تهمة الطائفية، وبعضهم وقع تحت تأثير إبر التخدير الباطنية ومجاملات لا وزن لها في ميزان الشريعة أو حسابات دنيوية زائلة ولذلك تركوهم يعيثون بعقائد الأمة ومقدساتها وساعدهم بعض علماء الأمة في تخدير الجمهور العريض من أبناء المسلمين مع علم هؤلاء العلماء بخطر هؤلاء القوم على عقائد الأمة وأخلاقها، أما يخشى هؤلاء الناس من يوم يتقلب فيه القلوب والأبصار ويسأل الله فيه الصادقين عن صدقهم.

ثانياً: الحملات النورية العسكرية على مصر:

قام الوزير الفاطمي ابن السلار السني المذهب بمحاولة الاتصال بنور الدين من أجل شن عمليات حربية مشتركة على أساس أن يتقدم نور الدين بقواته من الشمال ويقول الأسطول الفاطمي بمهاجمة المدن الساحلية الشامية الصليبية وتوسط أسامة بن منقذ بين الجانبين وعرض عليه ابن السلار أن يأخذ الأموال والهدايا لسلطان حلب عارضاً عليه القيام بمنازلة طبرية، وفي نفس الحين يقوم الأسطول الفاطمي بمهاجمة غزة، وفي حالة موافقة نور الدين على ذلك يقدم له ابن منقذ الأموال لمساعدته، فإن رفض فعلى الأخير أن يجند بالأموال عدداً من الفرسان لقتال الصليبيين عند عسقلان، غير أنه عندما بلغ بصرى وقابل نور الدين أوضح له مدى انشغاله بأمر دمشق وأنها تقف سداً منيعاً دون التعاون المشترك مع الفواطم إذ أنها لم تكن حينذاك قد سقطت بعد في قبضته [٢]، ويلاحظ أن ابن السلار استمر في صراعه مع الصليبيين فجهز في عام ٥٤٦هـ/١١٥١م أسطولاً أنفق عليه مالاً وفيراً وهاجم به المدن الساحلية الصليبية، وقد تحدث الذهبي عن ابن السلار فيقال: وكان بطلا شجاعاً، مقداماً مهيباً شافعياً سنيّاً، ليس على دين العُبيدية، احتفل بالسَّلَفي، وبنى له المدرسة، لكنه فيه ظلم وعسف[٣] وجبروت وتجددت المحاولات السابقة في عهد وزارة طلائع ابن زريك الذي

(١) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ص ٦٢.
(٢) كتاب الروضتين (٣٧٠/١).
(٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٨٤.

اتصل بنور الدين محمود عن طريق أسامة بن منقذ غير أن نور الدين لم يتعجل وكان يرى أن الفرصة المناسبة لم تأتِ بعد وكانت بين أسامة بن منقذ والملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رُزَّيك مساجلات شعرية منها ما قاله طلائع بن رُزيك:

فقولوا لنور الدين لا فُلَّ خدُّه ::: ولا حَكَمت فيه الليالي الغواشمُ
تجهز إلى أرض العدوَّ ولا تَهِن ::: وتُظهر فتوراً إن مضت منك حارم

ومنها مما كتبه إلى أسامة بن منقذ:

يا سَيِّداً يسمو بهمتَّه ::: إلى الرُّتب العَليَّه
فينال منها حين يُحرم ::: غيره أوفى مَزِيَّه
أنت الصديق وإن بعدت ::: وصاحب الشَّيَم الرَّضيه
نُنبيك أن جيوشنا ::: فعلت فِعال الجاهليه
سارت إلى الأعداء من ::: أبطالها مئتا سَرِيَّه
وتُعاوِدُ الأخرى عَيِشَّه ::: فتُغيرُ هذي بُكرةً
فالويل منها للفرنج ::: فقد لقوا جهد البَليَّه
جاءت رؤوسهمُ تلوح ::: على رؤوس السَّهمِريّه
وقلائع قد قُسِّمتْ ::: بين الجنود على السَّويَّه
وخلائقٌ كثرت من ::: الأسرى تقادُ إلى المنيه
فانهض فقد أنبيت مجد ::: الدين بالحال الجَلِيَّة
والمم بنور الدين وأعلُمه ::: بهاتيك القضيّه
فهو الذي ما زال يخلص ::: منه أفعالا ونيَّه
ويُبيدُ جمع الكفر بالبيض ::: الرَّقَاق المشرفيه
فعساه ينهض نهضة ::: يفني بها تلك البقيَّه
إمّا لنُصرة دينه ::: أو ملكه أو للحميَّه

وكتب إلى أسامة بن منقذ أيضاً فقال:

قل لابن منقذ الذي ::: قد حاز في الفضل الكمالا
فلذلك قد أضحى الأنام ::: على مكارمه عِيالاً
كم قد بعثنا نحوك ::: الأشعار مسرعة عجالاً
وصددت عنها حين رامت ::: من محاسنك الوِصَالا
هلاَّ بَذَلْتَ لنا مقالا ::: حين لم تبذُل فعالا
مع أنّنا نُوليك صبراً ::: في المودة واحتمالا
ونبثُّك الأخبار إن ::: أصخت قصاراً أو طِوالا
سارت سَرايات لقصد ::: الشام تعتسف الرِّمالا
تُزجي إلى الأعداء ::: جُرد الخيل أتباعاً تَوالَى [1]

إلى أن قال:

(١) كتاب الروضتين (٣٦٨/١).

فلـــــو أنَّ نـــــور الـــــدين ::: يجعـــل فعلنـــا فـــيهم مثـــالا
وَيُسَـــيَّرُ الأجنـــاد جهـــراً ::: كـــي ينُـــازِلَهم بِـــزالا
ووفـــى لنـــا ولأهـــل دولتـــه ::: بمـــا قـــد كـــان قـــالا
لرأيـــت للإفـــرنج طُـــرًّا ::: فـــي معاقلهـــا اعتقـــالا
وتجهَّـــزوا للسَّـــير نحـــو ::: الغـــرب أو قصـــدوا الشَّـــمالا
وإذا أبـــى إلاَّ اطِّراحـــاً ::: للنصـــيحة واعتـــزالا
عُـــدنا بتســـليم الأمـــور ::: لحكـــم خالقنـــا تعـــالى [1]

فأجابه بن منقذ بقصيدة منها:

يـــا أشـــرف الـــوزراء أخلاقـــاً ::: وأكـــرمهم فعـــالا
نَبَّهْـــت عيـــداً طالمـــا ::: نَبَّهتـــه قـــدراً وحـــالا
وَعَتَبْتَـــه. فأَفَلْتَـــهُ ::: فخـــراً ومجـــداً لـــن يُنـــالا
لكـــن ذاك العَتْـــبَ يُشـــعِلُ ::: فـــي جوانحـــه اشـــتعال

إلى أن قال:

واشـــدُد يـــديك بـــودَّ ::: نـــور الـــدين والـــقَ بـــه الرَّجـــالا
فهـــو المحـــامي عـــن بـــلاد ::: الشـــام جمعـــاً أن تُـــذَالا
ومُبيـــدُ أمـــلاكِ الفـــرنج ::: وجمعهـــم حـــالاً فحـــالا
مَلِـــكٌ يتيـــه الـــدهُر ::: والـــدنيا بدولتـــه اختيـــالا
جمـــع الخِـــلال الصَّـــالحات ::: فلـــم يَـــدَع منهـــا جـــالا
فـــإذا بـــدا للنَّـــاظرين ::: رأت عيـــونهم الكمـــالا
فبقيتمـــا للمُســـلمين ::: حِمًـــى وللـــدُّنيا جمـــالاً [2]

ولـم يـدخل نـور الـدين فـي تحـالف عسـكري مـع طلائـع بـن رُزيـك إلا أنـه اهـتم بالاتصـالات الدبلوماسية وقد وصلت في ٥٥٢هـ/١١٥٧م سفارة من جانب نور الدين وتكرر ذات الأمر في العام التالي أي ٥٥٣هـ/١١٥٨م وردت الدولة الفاطمية على تلك السفارة بـأن تم إعـادة السفير النـوري إلـى بلاده، ومعه هدايا وأسلحة تقدر بثلاثين ألفاً من الدنانير، وعينيات تقدر بسبعين ألفاً من أجل دعم صراع نور الدين مع الصليبيين [3] ونجد سفارة أخرى من نـور الـدين فـي عـام ٥٥٤هـ/١١٥٩م ومـن جهة أخرى أظهرت الدولة الفاطمية ودها لـه، فأرسل العاضد في عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م بـالخلع إليـه والواقع أن التعليل المنطقي لذلك أن الفاطميين بعد أن فقدوا عسقلان عام ٥٤٨هـ/١١٥٣م أدركوا من ذي قبـل؛ خطـورة الصـليبيين علـيهم ضـرورة الاسـتفادة مـن قـوة الدولـة النوريـة وثقلهـا السياسـي والعسكري [4].

١ – دوافع فتح مصر عند نور الدين:

(١) المصدر نفسه (٣٦٩/١).
(٢) الجهاد والتجديد ص ١٩٥.
(٣) المصدر نفسه ص ١٩٦.
(٤) المصدر نفسه ص ١٩٧.

كان فتح مصر من أعظم منجزات نور الدين رحمه الله، فقد تمكن من إسقاط الدولة الفاطمية العبيدية، التي استمرت أكثر من قرنين تنشر الفساد السياسي والخلل العقدي في أنحاء العالم الإسلامي، فهي التي أعانت الصليبيين في احتلال بلاد الشام بتحالفها وتآمرها معهم وهي التي تبنت المذهب الباطني ونشرته في ديار المسلمين، وعندما سادت الفوضى إدارة الحكم فيها، وتحكم الوزراء بالأمر دون الخلفاء طمع الصليبيون بغزو مصر فهاجموها المرة تلو المرة وعندها جرد نور الدين محمود حملاته العسكرية لتخليص مصر من مطامعهم، ولإعادة أرض الكنانة إلى منهج أهل السنة والجماعة، وجمع كلمة المسلمين [١]، ويمكن تلخيص أبرز الدوافع التي أدت إلى غزو مصر فيما يأتي:

الدافع الأول: حالة الفوضى التي سادت مصر آخر أيامها فقد أصبحت الدولة تعاني كثيراً من مظاهر الانحلال والفساد، حتى صار من الأمور الشائعة أن يصبح الخليفة أو الوزير مقتولاً، خلال الصراع الدائر بين الوزراء أنفسهم، أو بين الوزراء والخلفاء فقد قتل الظافر على يد وزيره، وتحكم الوزراء فيمن جاء بعده وفي اختيار من يشاءون، وقتل الوزراء بعضهم بعضاً، فقد تولى الوزارة في عام واحد ثلاثة وزراء: العادل بن رزيك، وشاور وضرغام، فضعفت الدولة وسادت الفوضى في البلاد ومن أواخر هذا الصراع خروج شاور من مصر، بعد أن طرده (ضرغام) ومن ثم استنجاده بنور الدين محمود، الذي وجد الفرصة مواتية لتوحيد الوحدة الإسلامية في بلاد الشام ومصر.

الدافع الثاني: إن مطامع الصليبيين شجعت القائد المجاهد نور الدين على التفكير جدياً بضم مصر إلى الجبهة الإسلامية، كما أن تلقيه العهد من الخليفة العباسي بإطلاق يده في بلاد الشام ومصر عام ٥٤٩هـ شد من عزيمته لإنجاز هذا الأمر [٢].

الدافع الثالث: من أقوى الأسباب التي أدت إلى القضاء على الخلافة الفاطمية العبيدية، العامل العقدي، فقد كانت دولة باطنية المعتقد، إسماعيلية المذهب فرقت وحدة المسلمين وتآمرت مراراً مع أعدائهم [٣]. فكان لابد من إقامة وحدة قوية في عقيدتها، شرعية في توجهها تضم إلى الخلافة العباسية أرض الكنانة مع بلاد الشام [٤]

وفي هذه الظروف التي كان نور الدين الشهيد يتطلع فيها إلى غزو مصر وصل إلى دمشق عام ٥٥٩هـ الوزير الفاطمي شاور بن مجير السعدي، طالباً النجدة منه، ضد من سلب منه منصبه قهراً، كما وعد شاور مقابل مساعدة نور الدين له: بثلث دخل البلاد المصرية سنوياً، بعد دفع رواتب الجند، وأن يكون نائباً عن نور الدين بمصر، إذا ساعده في التغلب على ضرغام عدوه، ويكون أسد

(١) المصدر نفسه ص ١٩٧.
(٢) الجهاد والتجديد ص ١٩٥.
(٣) المصدر نفسه ص ١٩٦.
(٤) مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك ص ١٣.

الدين شيركوه مقيماً بعسكره بمصر، ويتصرف مع شاور في شؤون البلاد بأمر نور الدين [١]. لكن نور الدين كان متردداً متريثاً: يقدم إلى هذا الغرض رِجلاً، ويؤخر أخرى حتى استخار الله في الأمر، على ما هنالك من أخطار جسيمة ممثلة في الصليبيين بالساحل وبيت المقدس، إضافة إلى شكه في إخلاص شاور السعدي [٢]. ثم جهز نور الدين الحملات المتوالية، ووجهها نحو مصر مُنذ عام ٥٥٩هـ حتى ٥٦٤هـ بقيادة أسد الدين شيركوه [٣].

٢ – الحملة النورية الأولى: ٥٥٩هـ:

قرّر نور الدين محمود إرسال حملة عسكرية إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه لتحقيق هدفين: مبدئيين:

– الوقوف عن كثب على أوضاع مصر الداخلية تمهيداً لضمِّها، وبخاصة أن شاور وعده إن هو عاد إلى منصبه، سيتحمَّل نفقات الحملة ويؤمن إقامة أسد الدين شيركوه وجنده في مصر.

– إعادة شاور، الوزير الفاطمي المخلوع إلى منصبه.

وعلم ضرغام بالاستعدادات التي تجري في دمشق لتجهيز حملة لمساعدة شاور، فاحتاط للأمر، واستنجد بعموري الأول في محاولة منه للدخول في لعبة توازن القوى، وعقد معه اتفاقاً لمساعدته ضد نور الدين محمود وتعهد له بالمقابل أن يدفع جزية سنوية يقررها الملك كما وافق على أن تدخل مصر في تبعية الصليبيين وأجبر الخليفة الفاطمي العاضد على توقيع هذا الاتفاق [٤]، وكان طبيعياً أن يقبل عموري الأول هذا العرض الذي سيتيح له فرصة لا تُعوَّض لدخول مصر وهو الأمل الذي سعى إليه الصليبيون منُذ أكثر من نصف قرن، فأعدَّ على الفور حملة عسكرية من أجل الزحف على مصر وخرج أسد الدين شيركوه على رأس حملته الأولى إلى مصر في شهر جمادى الآخرة ٥٥٩هـ/شهر نيسان ١١٦٤م بصحبة ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي كان يناهز السابعة والعشرين من عمره وسار على الطريق المحدَّد للحملة، والذي يمر عبر أراضٍ يسيطر عليها الصليبيون [٥] وحتى يصرف أنظارهم عن التعرض للحملة، وتأميناً على حياة أفرادها تصرف نور الدين محمود على محورين:

الأول: أنه رافق الحملة بجيشه إلى ما يلي دمشق للحيلولة دون التعرض لأفرادها.

الثاني: راح يهاجم الأطراف الشمالية لمملكة بيت المقدس المجاورة لدمشق لتحويل أنظار الصليبيين عن مصر [٦] وسار أسد الدين شيركوه على رأس جيشه الكثيف عبر الصحراء، بصحبة

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد ص ١٩٨.
(٢) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد ص ١٩٨.
(٣) الجهاد والتجديد ص ١٩٨.
(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٣٢٨.
(٥) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٧٦.
(٦) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٣٢٩.

شاور، فعبر الكرك ومر بالشوبك ثم أيلة، فالسويس ومنها إلى القاهرة وقد بلغ من السرعة في سيره أنه اجتاز برزخ السويس قبل أن يستعد الصليبيون للتدخل، فأرسل صرغام قوة عسكرية بقيادة أخ له يدعى ناصر الدين، للتصدي لزحفه، أسفر لقاء الطرفين في بلبيس عن انتصار واضح لأسد الدين شيركوه وتراجع ناصر الدين مهزوماً إلى القاهرة، فطارده أسد الدين شيركوه ووصل في أواخر جمادى الآخرة إلى العاصمة المصرية، فخرج إليه ضرغام بكل ما يملك من قوة لإدراكه أن هذه المعركة هي معركته الأخيرة وجرى اللقاء تحت أسوار القاهرة: اتسمت المعركة بالعنف وانتهت بانتصار أسد الدين شيركوه بعد أن تخلَّى الجيش والناس والخليفة عن ضرغام، وقتل أثناء محاولته الفرار قرب مشهد السيدة نفيسة - المزعوم - في شهر رجب ٥٥٩هـ/ شهر حزيران ١١٦٤م كما قتل أخوه ناصر الدين ودخل أسد الدين شيركوه القاهرة منتصراً وأعاد شاور إلى منصبه في الوزارة، ثم أقام معسكره خارجها [١].

وبعد أن ضمن شاور عودته إلى منصب الوزارة عاد إلى طبيعته التي اتصف بها - من المكر والخداع - ليدخل في صراع جديد مع أسد الدين شيركوه، فأساء معاملة الناس وتناسى وعوده لنور الدين محمود بل سرعان ما ظهرت عليه أمارات الغدر فنقض اتفاقيته معه، وطلب من شيركوه الخروج من مصر وأن يعود فوراً مع قواته إلى بلاد الشام، لكن هذا الأخير رفض الاستجابة لطلبه، وردَّ على موقفه المتقلب، فسارع إلى الاستيلاء على بلبيس وحكم البلاد الشرقية [٢]، ولم يَسَعْ شاور إلا أن يستنجد بالملك عموري الأول الذي كان يتأهب للزحف على مصر، وأخذ يخوَّفه من نور الدين محمود وعرض عليه أن:

– يؤدي له مبلغ ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الرحلة من بيت المقدس إلى نهر النيل، البالغ عددها سبعاً وعشرين مرحلة.

– يمنح هدية لكل من يصحبه من فرسان الأسبتارية الذين كانوا يشكلون عماد جيش مملكة بيت المقدس، في محاولة منه لإغراء فرسانها بالاشتراك بالحملة.

– يتكفَّل بنفقات علف أفراسهم، مقابل مساعدته لإخراج أسد الدين شيركوه من مصر [٣] وهكذا انغمس شاور في اللعبة السياسية بين الأعداء الكبار محاولاً بذلك إثارتهم لمصلحته الخاصة ولا شك بأن عموري الأول كان آنذاك يراقب تطورات الموقف السياسي والعسكري في مصر، فلما علم بزحف أسد الدين شيركوه ازدادت مخاوفه، ولما وصلت إليه دعوة شاور رحَّب بها، وبذلك لم يُضع الفرصة عليه لدخول مصر وإن اختلف الحليف، الأمر الذي لا يهمه في شيء فكل ما يعنيه هو دخول مصر [٤].

٣ – حملة عموري الثانية على مصر:

(١) المصدر نفسه ص ٣٢٩.
(٢) الباهر ص ١٢١ - ١٢٢ تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٣٠.
(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٣٠.
(٤) المصدر نفسه ص ٣٣٠.

فشلت حملة عموري الأول على مصر واضطر إلى الانسحاب والعودة إلى بيت المقدس وكانت في عام ٥٥٨هـ/١١٦٣م وعندما أتيحت الفرصة مرّة أخرى لدخول مصر بادر عموري الأول، فور تلقيه دعوة شاور، إلى عقد مجلس في بيت المقدس حضره بارونات المملكة، وتقرَّر فيه تلبية دعوة شاور بعد أن أوضح للمجلس أنّ في قدرته تجهيز حملة لغزو مصر دون أن يضعف من دفاعات المملكة، وبخاصة أنه وصل وقتئذ من أوروبا عدد من الحجاج لزيارة بيت المقدس يمكن الاستفادة منهم في المجهود الحربي وأمل في أن يتمكَّن من احتلال مصر لحساب الصليبيين، وقرَّر بأن يتولى بوهميوند الثالث، أمير أنطاكية، إدارة شؤون المملكة خلال غيابه[١]، وأسرع ملك بيت المقدس بالزحف إلى مصر على رأس قواته للمرة الثانية في شهر رمضان عام ٥٥٩هـ / شهر آب عام ١١٦٤م واتصل، فور وصوله إلى فاقوس [٢] بشاور واتفقا على حصار أسد الدين شيركوه في بلبيس وصمد هذا الحصن للحصار مدة ثلاثة أشهر دافع أسد الدين شيركوه خلالها عن مواقعه [٣]، وفجأة قرَّر عموري الأول الدخول في مفاوضات معه للجلاء المزدوج عن مصر، فما الذي حدث في الأفق السياسي حتى أقدم على هذه الخطوة - وهنا تبرز عبقرية نور الدين العسكرية وقيادته الفذة فقد - تلقَّى عموري الأول أنباء مزعجة من بلاد الشام بتعرض ممتلكاته لضغط من نور الدين محمود، ففضَّل العودة للدفاع عنها، وأدرك في الوقت نفسه أن حملته مقضي عليها بالفشل في ظل امتناع أسد الدين شيركوه في بلبيس. وكان موقف أسد الدين شيركوه صعباً أيضاً، فالمؤن بدأت بالنفاد فضلاً عن تفوق القوات الصليبية الفاطمية المشتركة في العدد وأن الوضع العسكري ليس في صالحه لذلك قبل الدخول في مفاوضات من أجل الجلاء عن مصر [٤].

وفعلاً تمّ الاتفاق بين الرجلين على الخروج من مصر في شهر ذي الحجة، شهر تشرين الأول وسار الجيشان الإسلامي والصليبي في طريقين متوازيين عبر شبه جزيرة سيناء بعد أن تركا شاور يسيطر على مقاليد الحكم وكان شيركوه آخر من غادر البلاد للحاق بجيشه [٥] وكان شاور الفائز الحقيقي في هذا الصراع الذي انتهى لمصلحته، فتخلَّص من الجيوش الإسلامية الشامية والصليبية على السواء كما تخلَّص من ضرغام وأضحى طوال العامين التاليين صاحب الأمر والنهي والمتحكَّم في مقاليد البلاد [٦]، ووضع أسد الدين شيركوه نفسه بعد عودته من مصر، تحت تصرف نور الدين محمود وأصبحت مصر محور تفكير أسد الدين شيركوه وحديثه في مجالسه ومحور أفكاره، ولم ينقطع عن تبادل الآراء مع أصدقائه فيها الذين كانوا يزودونه بأخبارها وأرسله نور الدين محمود في تلك الأثناء بمهمة إلى بغداد، فاستغل وجوده في عاصمة الخلافة ليثير حماس الخليفة المستنجد بالله حيث راح يقص عليه أخبار مصر وأحوالها، وما شاهده وخبره بنفسه، فتأثر الخليفة بما سمعه

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٣١.
(٢) فاقوس: مدينة في جوف مصر الشرقي وهي آذار ديار مصر من جهة الشام في الجوف الأقصى الحموي (٢٣٢/٤).
(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٣١.
(٤) المصدر نفسه ص ٣٣١.
(٥) المصدر نفسه ص ٣٣١.
(٦) المصدر نفسه ص ٣٣١.

وشجَّعه على العودة إليها[١].

وعلى الرغم من أن حملة أسد الدين شيركوه لم تحقق أهدافها في مصر، إلا أن النتيجة النهائية هي أن أملاك نور الدين محمود قد تدعَّمت في بلاد الشام وارتفع شأنه في العالم الإسلامي، بينما تراجعت أملاك الصليبيين إلى الساحل واستبد اليأس بهم [٢]، ومهما يكن من أمر، فقد غادر كل من شيركوه وعموري الأول أرض مصر وقد وقف كل منهما على أوضاعها السياسية المتردية وسوء أحوالها الاقتصادية، بالإضافة إلى ما تتمتع به من ثروة وفيرة وموارد بشرية هائلة ترجَّح كفة من يضع يده عليها. وانتهز شاور فرصة خروجهما فعاد إلى سيرته الأولى، يظلم ويقتل، ويصادر أموال الناس، بحيث لم يبق للخليفة الفاطمي العاضد معه أمر ولا نهي، ولما ثقلت وطأته عليه كتب إلى نور الدين محمود يستنجد به ليخلِّصه منه [٣].

٤ – الحملة النورية الثانية:

أعدّ نور الدين محمود القوات اللازمة وأرسلها إلى مصر في شهر ربيع الأول عام ٥٦٢هـ/شهر كانون الثاني عام ١١٦٧م بقيادة أسد الدين شيركوه وصحبة ابن أخيه صلاح الدين وسيَّر معه جماعة من الأمراء [٤]، وبلغ تعداد هذه القوات ألفي فارس [٥]، ورافقه نور الدين حتى أطراف البلاد خوفاً من تعرُّض الصليبيين له [٦]، وسار أفراد الحملة في طريق محفوفة بالأخطار، فالصليبيون الذين كانوا على طريقهم رابضين في الكرك والشوبك قد ينقضُّون عليهم وينكِّلون بهم، وهم بعيدون عن مناطقهم، والبدو يلاحقونهم وينقلون أخبارهم إلى الصليبيين، وكان عليهم أن يغيَّروا طريق سيرهم أحياناً للتّخفي، كما عرقلت الطبيعة زحفهم، إذ أن عاصفة رملية عنيفة هبَّت عليهم وقضت على عدد من الرجال وبعض الزاد وعلى الرغم من ذلك واصلوا رحلتهم إلى مصر وتوافر لشاور من الوقت ما جعله يستنجد مجدَّداً بعموري الأول، إذ أيقن من استقراء الأحداث أن أسد الدين شيركوه إذا قدم إلى مصر هذه المرة، فإنه سوف يبقى فيها ولا يغادرها، لذلك فإنه لم يتوان عن الاتصال بملك بيت المقدس والتفاوض معه، موضحاً له الخطر، الذي يمثله نور الدين محمود على مملكة بيت المقدس لو نجح في امتلاك مصر. رحَّب عموري الأول بدعوة شاور طمعاً في امتلاك مصر وإبعاد نور الدين محمود وجيوشه عنها، حتى لا يتمكَّن من تطويق مملكته التي ستصبح في وسط ممتلكات نور الدين محمود [٧] وقبل أن تستكمل الاستعدادات وردت الأنباء بأن أسد الدين شيركوه يجتاز صحراء سيناء، فلم يسع عموري الأول إلا أن يرسل ما تيسر الحصول عليه من الجند

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٣٢.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٣٢.
(٣) النجوم الزاهرة (٣٤٨/٥).
(٤) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٤٢.
(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١٣/٢).
(٦) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٤٢.
(٧) مفرج الكروب (١٤٩/١) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٤٣.

لعرقلة تقدمه، غير أن هذا التدبير جاء [١] متأخراً. وعلى الرغم من أن جيش أسد الدين شيركوه تعرَّض لعاصفة رملية عرقلت تقدمه، وكادت تقضي على أفراده، فإنه وصل سالماً إلى برزخ السويس في شهر ربيع الآخر/أوائل شهر شباط) وعلم أسد الدين شيركوه بأن جيشاً صليبياً شرع في الزحف باتجاه مصر، عندئذ اجتاز الصحراء باتجاه الجنوب الغربي ليتفادى مواجهة مبكرة مع الصليبيين حتى بلغ نهر النيل عند أطفيح على مسافة أربعين ميلاً جنوبي القاهرة [٢] ثم عبر إلى الضفة الغربية والتزمها في سيره حتى وصل إلى الجيزة وعسكر بمواجهة الفسطاط، وتصرَّف في البلاد الغربية وحكمها نيفاً وخمسين يوماً[٣].

أ – حملة عموري الثالثة على مصر والمفاوضات الصليبية الفاطمية:

خرج عموري الأول من بيت المقدس في شهر ربيع الأول عام ٥٦٢هـ شهر كانون الثاني عام ١١٦٧م متوجهاً إلى مصر في حملته الثالثة على هذا البلد، واجتاز الطريق المألوف من غزة إلى العريش، ثم اخترق الصحراء إلى بلبيس وارتاع شاور من ظهوره المفاجئ وساوره القلق لعدم التنسيق معه، ويبدو أنه لم يكن على علم بوصول شيركوه إلى أطفيح، ولم يطمئن إلا عندما أرسل كشافته إلى الصحراء للوقوف على حقيقة الوضع، عندئذ خرج لاستقبال الملك الصليبي والتقى به، وأنزله عموري الأول في معسكره على الضفة الشرقية لنهر النيل على مسافة ميل واحد من أسوار القاهرة[٤]، وأجرى مع شاور مباحثات تعهد شاور خلالها بأن يدفع أربعمائة ألف دينار مقابل طرد أسد الدين شيركوه من مصر، على أن يجري دفع نصف هذا المبلغ على الفور، ثم يبذل النصف الآخر فيما بعد، واشترط أن يقُسم عموري الأول على هذا [٥]، ولدعم هذه الاتفاقية، وإعطائها صيغة رسمية، أرسل عموري الأول كلاً من هيو سيد قسارية، وجفري مقدم فرسان الداوية، إلى الخليفة الفاطمي للحصول منه على الموافقة الرسمية عليها، فاستُقبل الرسولان استقبالاً حافلاً في القصر الفاطمي وتمَّ التصديق على المعاهدة [٦]. وكان من الطبيعي أن يرحَّب الصليبيون بهذه الاتفاقية التي تجعل منهم حماة لمصر والخلافة الفاطمية، وتُبعد أسد الدين شيركوه بوصفه المنافس الوحيد لهم في السيطرة على هذا البلد [٧].

ب – معركة البابين:

كان أسد الدين والعسكر النُّوري قد ساروا إلى الصَّعيد فبلغوا مكاناً يُعرف بالبابَيْن، وسارت

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٤٣.
(٢) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٤٣.
(٣) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص ٣٤٤.
(٤) وليم الصوري (٨٩٦/٢).
(٥) المصدر نفسه (٨٩٩/٢) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٤٤.
(٦) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٤٤.
(٧) المصدر نفسه ص ٣٤٤.

العساكر المصرية والفرنج وراءهم فأدركوهم به في الخامس والعشرين من جمُادى الأولى وكان قد أرسل إليهم جواسيس، فعادوا وأخبروه بكثرة عَدَدهم وعُددهم، وجدَّهم في طلبه، فعزم على لقائه وقتالهم، وأن تحكم السيوف بينه وبينهم، إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن الثبات في هذا المقام الخطر الذي عطبهم فيه أقرب من السَّلامة، لقلة عددهم وبُعْدهم عن بلادهم فاستشارهم، فكلُّهم أشار عليه بعبور النِّيل إلى الجانب الشَّرقي والعوْد إلى الشَّام وقالوا له: إن نحن انهزمنا - وهو الذي لا شك فيه - فإلى أين نلتجئ وبمن نحتمي، وكل في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدوٌّ لنا، ويَوَدُّون لو شربوا دماءنا؟ وحُقَّ لعسكر عدتهم ألفا فارس قد بَعُدُوا عن ديارهم ونأى ناصرهم أن يرتاع من لقاء عشرات ألوف، مع أن كل أهل البلاد عدوٌّ لهم. فلما قالوا ذلك قام إنسان من المماليك النُّورية يقال له: شرف الدين بُزغُش - وكان من الشجاعة بالمكان المشهور - وقال: من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك، بل يكون فلاحاً أو مع النِساء في بيته والله لئن عُدْتُم إلى الملك العادل من غير غَلبة وبلاء تُعذرون فيه ليأخذنَّ إقطاعاتكم وليعودَنَّ عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا، ويقول لكم: أتأخذون أموال المسلمين وتفرُّون عن عدوهم، وتسلِّمون مثل هذه الديار المصرية يتصرَّف فيها الكُفَّار؟ قال أسد الدين: هذا رأي وبه أعمل. ووافقهما صلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم كثر الموافقون لهم على القتال، فاجتمعت الكلمة على اللقاء، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبئة - وهنا برزت عقلية أسد الدين شيركوه وخبرته العسكرية فقد جعل الأثقال في القلب يستكثر بها، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد ثم إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب وقال له ولمن معه: إن الفرنج والمصريين يعلمون أنني في القلب فهم يجعلون جَمْرتهم بإزائه وحملتهم عليه، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم واختار من شجعان أصحابه جمعاً يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم، ووقف بهم في الميمنة، فلما تقابل الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره أسد الدين وحملوا على القلب ظناً منهم أنه فيه، فقاتلهم مَنْ به قتالاً يسيراً، ثم انهزموا بين أيديهم، فتبعوهم، فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على من تخلَّف من الفرنج الذين حملوا على القلب - من المسلمين والفرنج - فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن، وأكثر القتل والأسر، وانهزم الباقون، فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بَلْقْعاً ليس بها منهم ديَّار، فانهزموا أيضاً وكان هذا من أعجب ما يؤرَّخ: أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج السَّاحل[1].

ج – حصار الإسكندرية:

ثم سار أسد الدين إلى ثغر الإسكندرية وجبى ما في طريقها من القرى والسَّواد من الأموال،

(١) الباهر ص ١٣٢ - ١٣٣، كتاب الروضتين (١٣/٢).

ووصل إلى الإسكندرية فتسلَّمها من غير قتال؛ سلَّمها أهلها إليه فاستناب بها صلاح الدَّين ابن أخيه، وعاد إلى الصَّعيد وتملَّكه وجبى أمواله وأقام به حتى صام رمضان وأما المصريون والفرنج فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم وأقاموا عوض من قُتل منهم، واستكثروا، وحشدوا، وساروا إلى الإسكندرية - وبها صلاح الدين في عسكر يمنعونها منهم، وقد أعانهم أهلها خوفاً من الفرنج، فاشتد الحصار وقَلَّ الطعام بالبلد، فصبر أهله على ذلك، ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم، وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان، ووصله رسل المصريين والفرنج يطلبون الصُّلح [١].

س – المفاوضات النورية – الصليبية بشأن الجلاء عن مصر:

وبعد مفاوضات بين الطرفين تمّ عقد صلح على الأسس التالية:

- رفع الحصار عن الإسكندرية.
- تبادل الأسرى.
- إطلاق سراح الجند النوري داخل الإسكندرية.
- يخرج شيركوه مع عسكره من مصر.
- عدم التعرض لهم في الطريق من قِبل القوات الصليبية.

إن قراءة متأنية لسير الوقائع، كما جرت على الأرض، والعروض المتبادلة بشأن عقد الصلح وما حدث بعد إبرام الاتفاقية تمكن من رصد الملاحظات التالية: فقد وافق الجانبان النوري والصليبي الفاطمي على:

- خروج القوات النورية والصليبية من مصر.
- تبادل الأسرى.
- يتعهد شاور بألاّ يُعاقب رعاياه في الإسكندرية وفي غيرها من الجهات الذين ساندوا أسد الدين شيركوه [٢].

ومهما يكن من أمر، فقد دخل عموري الأول مدينة الإسكندرية في شهر شوال/ شهر آب في حين غادرها صلاح الدين في موكب عسكري حافل على الرغم مما أصاب السكان من ضيق لرحيله، والتقى الرجلان وأعجب كل منهما بالآخر، حتى لقد قام ملك بيت المقدس بإمداد صلاح الدين ببعض المراكب لنقل الجرحى المسلمين إلى بلاد الشام [٣]. على أن متاعب السكان لم تنته، فلم يكد أتباع شاور يدخلون المدينة حتى ألقوا القبض على كل من جرى الاشتباه في أنه تعاون مع صلاح الدين وقد احتج هذا الأخير لدى عموري الأول الذي نصح شاور بأن يطلق سراح الأسرى

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١٤/٢).
(٢) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٥٠.
(٣) المصدر نفسه ص ٣٥١.

(١). وكانت هذه هي المرّة الثانية التي يغدر شاور وقد علَّمت صلاح الدين درساً قاسياً، حتى إنه لم يتركها تتكرر، واقتصَّ بنفسه من شاور عندما عادت القوات الشامية إلى مصر عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م(٢).

ك – الحماية الصليبية على مصر:

غادر كل من أسد الدين شيركوه وصلاح الدين مصر في شهر ذي القعدة / شهر أيلول في حين تأخر عموري الأول لبضعة أسابيع، لأنه مرَّ بالقاهرة ليثبِّت الحماية الصليبية على الدولة الفاطمية وشاور، وكانت أهم مظاهرها:

- دفع جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار للصليبيين.
- بقاء قوة من فرسانهم تحمي أبواب القاهرة، لتدفع نور الدين محمود إن كرَّر محاولة الهجوم.
- إقامة مندوب عن الملك الصليبي في القاهرة يشارك في شؤون الحكم (٣).

والراجح أن فكرة تملُّك مصر كانت ناشطة في تفكير عموري الأول السياسي، ولم يعد بوسعه أن يتخلى عنها، وهو ينوي العودة بعد إقرار الأمور في بلاد الشام، وذلك طمعاً في ثروتها وحماية لكيانه في بلاد الشام، ثم عاد الملك إلى فلسطين (٤). وبهذه الإجراءات تأكدت الحماية على مصر، وترتَّب على هذا استمرار التنافس بين نور الدين محمود وعموري (٥).

٥ – الحملة النورية الثالثة على مصر عام ٥٦٤هـ:

سبب هذه الحملة أن الفرنجة كانوا قد جعلوا لهم شحنة في القاهرة، وتسلموا أبوابها، وحكموا المسلمين حكماً جائراً، فلما رأوا أنه ليس في البلاد من يردهم، أرسلوا إلى ملكهم - عموري - في القدس، يستدعونه ليملك مصر، وهونوا عليه أمرها، فتردد خوفاً من سوء العاقبة، ثم سار مع فرسانهم على كره منه حتى وصلوا بلبيس مستهل صفر ونهبوها، وقتلوا وأسروا من فيها، ثم ساروا إلى (الفسطاط) فأمر شاور بإحراقها وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة، وأن ينهب البلد خوفاً من أن يملكها الإفرنج، فنهبت المدينة وبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً ثم حاصر الفرنجة القاهرة وضيقوا على أهلها، وكان شاور هو المتولي للعساكر والقتال فضاق به الأمر وضعف عن ردهم، فأخلد إلى الحيلة وراسل ملكهم عموري ووعده بمال عظيم ألف ألف دينار مصرية يعجل بعضها الآن، ودفع لهم منها (مائة ألف دينار) وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال، فرحلوا قريباً، وجعل يجمع لهم المال فلم يستطع أن يجمع إلا خمسة آلاف دينار حيث أن المصريين كانوا قد احترقت دورهم، ونهبت أموالهم (٦).

---

(١) تاريخ الفاطميين ص ٤٩٤.
(٢) المصدر نفسه ص ٤٩٥.
(٣) المصدر نفسه ص ٤٩٥.
(٤) النجوم الزاهرة (٣٤٩/٥).
(٥) تاريخ الفاطميين ص ٤٩٥.
(٦) كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص ٢٠٢.

أ – العاضد يستنجد بنور الدين محمود:

كان حاكم مصر العاضد عقيب حريق مصر قد أرسل إلى نور الدين يستغيث به ويعرِّفه ضعف المسلمين عن الفرنج وأرسل في الكتب شعور النساء وقال لـه: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لِتُنقِذهُنَّ من الفرنج [١] وعرض على نور الدين مقابل إنقاذ البلاد من الصليبيين:

– منحه ثلث بلاد مصر. – منح قادته الإقطاعات.

– يسمح لشيركوه بأن يقيم في مصر [٢].

ب – أسد الدين شيركوه يزحف إلى مصر ويدخل القاهرة:

شرع نور الدين في تجهيز الجيوش وإعدادها إعداداً قوياً وأعطى قائد الحملة (شيركوه) مائتي ألف دينار، سوى الثياب والدواب والأسلحة، وحكمه في العسكر والخزائن، يأخذ حاجته فاختار من العسكر ألفي فارس، وجمع من فرسان التركمان ستة آلاف وسار نور الدين وشيركوه إلى باب دمشق، ورحلوا إلى رأس الماء [٣]، وأعطى نور الدين كل فارس منهم عشرين ديناراً، معونة غير محسوبة وأضاف إلى شيركوه جماعة أخرى من الأمراء، منهم صلاح الدين الأيوبي [٤]، وسار أسد الدين مجداً فلما قارب مصر، رحل الفرنجة إلى بلادهم بخفي حنين، خائبين مما أملوا، وسمع نور الدين بعودتهم فسره ذلك، وأمر بضرب البشائر في بلاد ولما وصل أسد الدين القاهرة، دخلها واجتمع بالعاضد، الذي خلع عليه وفرح به أهل مصر، وأجريت على عساكره الجرايات الكثيرة [٥].

ج – مقتل شاور:

وأما شاور فلم يفصح عما في نفسه، وشرع يماطل أسد الدين فيما وعد به من المال، ورواتب الجند، وعزم على الغدر أيضاً، فقرر أن يقيم وليمة لأسد الدين وأمرائه ثم يغدر بهم ويقتلهم، فنهاه ابنه الكامل عن ذلك وقال لـه: والله لئن عزمت على هذا الأمر لأُعرِّفَنَّ أسد الدين. فقال لـه أبوه: والله لئن لم أفعل لنقتلن جميعاً. فقال: صدقت، ولئن نُقتل ونحن مسلمون والبلاد بين المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً ويملكون البلاد، فترك ما كان عزم عليه [٦]، وأخيراً اتفق صلاح الدين وبعض الأمراء على التخلص من هذا الخائن المراوغ شاور فأسروه، وسمع العاضد بذلك فأرسل إلى شيركوه يطلب رأسه، وأذن أسد الدين بقتله فقتل، وأرسل رأسه إلى العاضد في السابع عشر من ربيع الآخرة، عام ٦٤٣هـ [٧].

---

(١) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد ص ٢٠٢.
(٢) تاريخ الفاطميين محمد سهيل طقوس ص ٥٠٤.
(٣) الجهاد والتجديد ص ٢٠٢ رأس الماء في منطقة حوران.
(٤) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد ص ٢٠٢.
(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٥٥/٢).
(٦) المصدر نفسه (٥٦/٢).
(٧) الجهاد والتجديد ص ٢٠٣.

ر – تولي أسد الدين الوزارة للعاضد:

ودخل أسد الدين القاهرة، وقصد قصر العاضد فخلع عليه الوزارة، ولقبه الملك المنصور، وأمير الجيوش، واستعمل على الأعمال من يثق به من أصحابه وأقطع البلاد لعساكره، وقد مدح الشعراء أسد الدين شيركوه لما حقق من الانتصارات فقال العماد:

بلغت بالجد ما لا يبلغ البشر ::: ونلت ما عجزت عن نيله القُدَر
أصبحت بالعدل والإقدام منفرداً ::: فقل لنا أعليّ أنت أم عمر
افخر فإن ملوك الأرض أذهلهم ::: ما قد فعلت، فكلٌّ فيك مفتكِرُ
سهرت إذ رقدوا بل هُجْتَ إذ سكنوا ::: وصُلت إذ جبنوا، بل طُلت إذ [1] قصروا

س – وفاة أسد الدين:

ولم تطل وزارة شيركوه، حيث توفي في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام رحمه الله رحمة واسعة وخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين [2] وكان أسد الدين من أكبر قادة نور الدين، وقد ادخره الملك العادل للخطوة الكبرى التي كان يمهد لها، وهي ضم مصر إلى بلاد الشام وكان رحمه الله كريماً على جنده، صارماً يعرف كيف يقر النظام في عسكره فهابه جنده وأحبوه، وركبوا معه المخاطر في حملات عظيمة [3] نفع الله بها الإسلام والمسلمين وساهمت في تقوية المشروع المقاوم للغزو الصليبي الذي كان يقوده نور الدين ثم من بعده صلاح الدين وسيأتي التفصيل بإذن الله عن أسد الدين شيركوه وبني أيوب في حديثنا عن عصر الدولة الأيوبية وسيرة صلاح الدين الأيوبي بإذن الله تعالى.

ثالثاً: وزارة صلاح الدين في مصر والمهام التي أنجزها:

كان صلاح الدين قد أظهر كفاءة خلال صحبته لعمه، أسد الدين شيركوه، أثناء حملاته على مصر، فتولى الوزارة بعد وفاة عمه، وهو في الحادية والثلاثين من عمره اختاره العاضد، لأنه كان أصغر الأمراء سناً ولعله يكون أكثر طواعيةً له، إلا أن الملك الناصر كما لقبه العاضد - خيب ظن الفاطميين، فشرع يستميل قلوب الناس إليه كما بذل لهم من الأموال التي قد جمعها عمه، فمال الناس إليه وأحبوه وسيطر على الجند سيطرة تامة [4]، وكانت المهام التي أنجزها صلاح الدين في عهد نور الدين عظيمة وضخمة واستطاع القضاء على مراكز القوة:

١ – مؤامرة مؤتمن الخلافة:

(١) كتاب الروضتين ص ٢٠٣، ٢٠٤.
(٢) الجهاد والتجديد ص ٢٠٤.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٤.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٠٥.

جرى من الأحداث في مصر بعد تولية صلاح الدين منصب الوزارة، أن البلاد كانت تجتاز مرحلة خطيرة في تاريخها، فالدولة الفاطمية لا زالت موجودة يساندها الجيش الفاطمي وكبار الدولة، والخطر الصليبي لا يزال جاثماً على مقربة من أبواب مصر الشرقية، فكان عليه أن يثبت أقدامه في الحكم ليتفرغ لمجابهة ما قد ينشأ من تطورات سياسية ولم يلبث أن أظهر مقدرة كبيرة في إدارة شؤون الدولة وهو عازم على الاستئثار بكافة الاختصاصات حتى التي تخص منصب الخلافة ونفَّذ عدة تدابير كفلت له الهيمنة التامة منها:

- استمال قلوب سكان مصر بما بذل لهم من الأموال فأحبوه.

- أخضع مماليك أسد الدين شيركوه، وسيطر بشكل تام على الجند بعد أن أحسن إليهم.

- قوّى مركزه بما كان يمده به نور الدين محمود من المساعدات العسكرية وقد وصل أخوه شمس الدولة توران شاه بن أيوب مع إحدى هذه المساعدات العسكرية [١]. وقد أدَّت التدابير التي نفَّذها صلاح الدين إلى تقوية قبضته على مقدرات الدولة، وزادت من تراجع نفوذ العاضد وبالتالي مركز الإمامة وأثارت استياء كبير الطواشية، مؤتمن الخلافة، وهو نوبي، وقائد الجند السودان، وقد أدرك أن نهج صلاح الدين في الحكم سوف يقضي في حال استمراره على الدولة الفاطمية إن عاجلاً أو آجلاً ويبدو أنه كان من بين الطامعين في خلافة شاور، ولما لم يفلح راح يحيك الدسائس للإطاحة بصلاح الدين وحاول الاتصال بعموري الأول ملك بيت المقدس، لتحريضه على مهاجمة مصر، آملاً في حالة الاستجابة أن يخرج صلاح الدين إلى لقائه، فيقبض هو على من يبقى من أصحابه في القاهرة ويثبت على منصب الوزارة ويتقاسم البلاد مع الصليبيين غير أن صلاح الدين علم بخيوط المؤامرة حين ارتاب أحد أتباعه في شكل الخفين اللذين اتّخذهما رسول مؤتمن الخلافة إلى عموري الأول، فأخذهما ونزع خياطتها، فاكتشف الرسالة بداخلها، فقبض على مؤتمن الخلافة وانتهز الفرصة للتخلص منه، غير أن أنباء اهتزاز مركزه في مصر شجعت النصارى على القيام بمحاولة أخرى لمهاجمة مصر [٢]. وقد قام صلاح الدين بإبعاد جميع الخدم من السودان عن قصر الخلافة واستعمل على الجميع في القصر بهاء الدين قراقوش، فكان لا يجري في القصر صغير ولا كبير إلا بحكمه وأمره [٣].

٢ – وقعة السُّودان:

وذلك أنه لما قتل الطَّواشي [٤]، مؤتمن الخلافة الخادم الحبشيُّ، وعزل بقية الْخُدَّام غضبوا لذلك واجتمعوا قريباً مِن خمسين ألفاً، فاقتتلوا هم وجيش الملك صلاح الدين بين القَصْرَين فقتل خلق كثير من الفريقين، وكان العاضد ينظر من القصر إلى المعركة، وقد قُذْفَ الجيشُ الشاميُّ من القصر بحجارة، وجاءهم منه سهامٌ، فقيل: كان ذلك بأمر العاضد وقيل: لم يكن بأمره، ثم إن أخا الناصر -

(١) تاريخ الفاطميين ص ٥٠٩ البداية والنهاية (٤٣٣/١٦).

(٢) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الفاطميين ص ٥١٠.

(٣) البداية والنهاية (٤٣٤/١٦).

(٤) الطواشي: جمع طواشية وهم الخصيان الذين استخدموا في الطياق المملوكة وفي الحريم السلطاني وكانت لهم حرمة وافرة.

صلاح الدين - شمس الدولة تورانشاه وكان حاضراً للحرب قد بعثه نور الدين إلى أخيه ليُشدَّ أزره - أمر بإحراق منظره العاضد، ففتح الباب ونُودِي: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تخرجوا هؤلاء السُّودان من بين أظهركم، ومن بلادِكم فقوى الشاميون وضعف جأش السودان جدًّا،، وأرسل الملك الناصر إلى محلتهم المعروفة بالمنصورة التي فيها دورُهم وأهلوُهم بباب زويلة فأحرقها فولَّوا عند ذلك مُدبرين، وركبهم السيف فقتل خلقاً كثيراً، ثم طلبُوا الأمان من الملك صلاح الدين، فأجابهم إلى ذلك، وأخرجهم إلى الجيزة، ثم خرج إليهم شمسُ الدول تورانشاه أخو الملك صلاح الدين فقتل أكثرهم ولم يبق منهم إلا القليل{فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا} (النمل، آية: ٥٢) [١] ويبدو أن حاكم مصر الفاطمي كان في ذلك الوقت على علم بمؤامرة مؤتمن الخلافة، لأنه ليس من المتصور أن يجري ذلك في قصره وبدون علمه، ويؤكد ذلك أن قوات صلاح الدين يوسف بن أيوب تعرضت وهي تصفي أطراف المؤامرة لهجمات بالحجارة والسهام صادرة من قصر الحاكم، بل إن العاضد كان يراقب المعركة من القصر [٢].

كان اكتشاف المؤامرة من مسؤوليات ديوان الإنشاء وبالذات القاضي الفاضل الذي كان العقل المفكر للقضاء على النفوذ الفاطمي في مصر وتثبيت المذهب السني وسيأتي الحديث عنه مفصلاً بإذن الله في حديثنا عن الدولة الأيوبية.

كان القاضي الفاضل يراقب كتّاب ديوان الإنشاء والمسرّحين منهم بصورة خاصة، وكانت العيون مبثوثة في كل ناحية ومنطقة وزاوية، في القصور وبين العساكر، وعلى الحدود، وعلى كل محطة من محَطات البريد أو محطَّات الاتصال بين مصر والفرنج وقد كانت هذه العيون على اتّصال مباشر بالقاضي الفاضل تزوده بتقريرها بواسطة الرسل وعلى أجنحة حمام الزاجل [٣].

٣ – القضاء على الأرمن:

ولم يتوقف نصر صلاح الدين بالقضاء عل شوكة السودان بل أتبعه بفلّ شوكة الأرمن، وهم الفرقة التالية للسودان قوة وعدداً، فأحرق داراً للأرمن بين القصرين وفيها عدد كبير من الجنود الأرمن، معظمهم من الرماة ولهم رواتب من الحكومة، وكان هؤلاء قد حاولوا أن يعرقلوا حركة قوات صلاح الدين في أثناء المعركة مع السودان برميهم بالنّشاب فلقوا جزاءهم، وأما من تبقّى منهم فنفاهم صلاح الدين إلى الصعيد [٤]، أضعف صلاح الدين بقضائه على شوكة السودان والأرمن الدولة الفاطمية إلى حد بعيد، بحيث أصبح من الواضح أن القضاء على الدولة الفاطمية نفسها لم يعد بعيداً [٥].

٤ – اهتمام صلاح الدين بتقوية جيوشه:

---

(١) البداية والنهاية (٤٣٥/١٦).
(٢) الطريق إلى القدس ص ٩١.
(٣) القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني ص ١٣٠، ١٣١.
(٤) القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني ص ١٣٣.
(٥) المصدر نفسه ص ١٣٣.

أخذ صلاح الدين يعمل حال توليه الوزارة على إعداد جيش أيوبي ليكون نواة لجيش مصري جديد يدافع به عن حكمهم، وعن مصر من الغزو الإفرنجي ولم يُخفَ عليه تدهور وضع الجيش الفاطمي لأنه خبره في أثناء رحلاته الثلاث إلى مصر بين سنة ٥٥٩هـ وسنة ٥٦٤هـ/١١٦٣م - ١١٦٨م وعرفه معرفة جيدة من حيث مصادره البشرية والمالية والحربية ومن حيث تنظيمه وفِرقه المبنية على أساس عرقي، مثل السودان، والأرمن، والمصريين والديلم والأتراك والعربان وكان يعرف بالتفصيل وضع كل فرقة من هذه الفرق [١]، وكان القاضي الفاضل قد عمل في إدارة هذه القوات في عهد رزيك بن الصالح وساهم معها في بعض وقائعها الحربية خلال الحملة الفرنجية الشامية الثانية على مصر كما أشرنا سابقاً، وشاهد قادة الفرق المختلفة من هذه القوات وهم يتنافسون في شأن السلطة الأمر الذي أنهك القوات وأضعف مصر إلى حد أصبحت تعجز معه عن الدفاع عن استقلالها، أو حتى عن بقائها وعرف القاضي الفاضل الكثير عن القوات المصرية عن طريق عمله معها في ديوان الجيش وفي ديوان الإنشاء الذي كان يتعامل مع ديوان الجيش ويشرف على العيون والرسل، فألّم بهذه القوات وعرف دخائلها وأطّلع على كل فرقة منها وعلى نيات كل قائد من قوّادها، ولم يضنَّ بمعلوماته عنها على صلاح الدين، بل وجهه في تنظيم جيشه الأيوبي وإدارته، وظل طول عمله مع صلاح الدين يشرف على عساكره، ويراقب إعدادها وتنظيمها ومواردها المالية ويصحبها من مصر إلى الشام لتحارب مع صلاح الدين ومن الشام إلى مصر لتستعد وتتجهز لحملات مقبلة ضد الفرنج وقد أنشا صلاح الدين في بداية عهده في الوزارة جيشاً كبيراً ازداد عدداً وعدّة بمرور الوقت واتساع عملياته الحربية ضد الفرنج وكان قوام هذا الجيش في مصر الحرس الخاص، والجيش النظامي في مصر، ثم الجيوش الشعبية التي تكوّنت من أمراء الإقطاع وجنودهم، ولاسيما في الشام والجزيرة بعد سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م والبدو [٢] ويأتي بيان ذلك بإذن الله تعالى مفصلاً في الحديث عن الدولة الأيوبية وصلاح الدين.

رابعاً: التصدي للحملة الصليبية البيزنطية المشتركة وحصار دمياط ٥٦٥هـ:

أدرك الإفرنج خطورة موقفهم بعد فتح مصر، وتولى صلاح الدين وزارتها، فاتفق ملك القدس (عموري) مع إمبراطور بيزنطة على غزو مصر بأساطيلهم وحاصروا دمياط تنفيذاً لذلك التحالف[٣]، وأرسل صلاح الدين قواته بقيادة خاله شهاب الدين محمود وابن أخيه تقي الدين عمر، وأرسل إلى نور الدين يشكو ما هم فيه من المخافة ويقول: إن تأخرت عن دمياط ملكها الإفرنج، وإن سرت إليها خلفني المصريون في أهلها بالشر، وخرجوا من طاعتي، وساروا في أثري، والفرنج أمامي؛ فلا يبقى لنا باقية [٤]. إلى صلاح الدين فسر وقد قام نور الدين بالدور المتوقع منه واتخذ القرار السليم العساكر ثم سار هو بنفسه إلى بلاد الفرنج الشامية وقام بشن الغارات على حصون

(١) المصدر نفسه ص ١٢٦.
(٢) القاضي الفاضل ص ١٢٧.
(٣) الجهاد والتجديد ص ٢٠٧.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٠٧.

الفرنجة وقلاعهم ووصلت سراياه إلى المدى الذي لم تصله من قبل في بلادهم ليخفف الضغط عن مصر وفي ذلك تعزيز ودعم لصلاح الدين حتى يتمكن من إحكام السيطرة على مصر، ليتفرغ بعد ذلك للمساعدة في تحقيق الهدف الإستراتيجي الكبير المتمثل في تحرير سواحل بلاد الشام من الاحتلال [١] الفرنجي وقامت حامية دمياط بدور بطولي في الدفاع عن المدينة وألقت سلسلة ضخمة عبر النهر، منعت وصول السفن اليونانية إليها وأنزل المسلمون المدافعون الخسائر بالأسطول البيزنطي اليوناني، وهطلت أمطار غزيرة حولت المعسكر الصليبي إلى مستنقع فتهيأوا للعودة وغادروا دمياط بعد حصار دام خمسين يوماً، وعندما أبحر الأسطول البيزنطي، هبت عاصفة عنيفة، لم يستطع البحارة الذين كادوا أن يهلكوا جوعاً من السيطرة على سفنهم فغرق معظمها، ونصر الله المسلمين نصراً مؤزراً [٢].

١ – أسباب فشل الحملة على دمياط:

يعود فشل الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط إلى عوامل تتعلق بالمسلمين والصليبيين والبيزنطيين وبالجانبين الصليبي والبيزنطي معاً.

أ – فيما يتعلق بالجانب الإسلامي يمكن رصد العوامل التالية:

- صمود سكان دمياط في وجه المعتدين.

- سرعة إمداد صلاح الدين المدينة بالمؤن والسلاح، مما رفع معنويات سكانها المحاصرين.

- التعاون الصادق بين القوات الإسلامية في كل من بلاد الشام ومصر بهدف التصدي للمعتدين.

- القدرة القتالية للقوات الإسلامية، وحسن تخطيطها وتنظيمها الدقيق [٣].

- موقف نور الدين محمود الداعم، فقد أرسل بعوثًا كثيرة يتبع بعضها بعضًا، ثم إن نور الدين اغتنم غيبة الفرنج عن بلادهم فصمد إليهم في جيوش كثيرة فجاس خلال ديارهم، وغنم من أموالهم، وقَتل من رجالهم، وسبى من نسائهم وأطفالهم شيئاً كثيراً، وعندما بلغ الفرنج بدمياط ما فعله نور الدين اضطروا لترك دمياط [٤].

- استغلال المسلمين الجيد للفرص التي أتيحت لهم فقد استغلوا فرصة معاناة البيزنطيين من الجوع، فشنوا هجوماً عليهم جاء فعّالاً، كما استغلوا هبوب الرياح الجنوبية لإشعال النار في الأسطول البيزنطي بواسطة حرّاقة [٥] والأهم من هذا كله توفيق الله وحفظه ومعيته وإنزال نصره على عباده المجاهدين.

---

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٦٠.
(٢) الجهاد والتجديد ص ٢٠٨.
(٣) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٣٧٩.
(٤) البداية والنهاية (١٦/٤٤٠).
(٥) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٣٨٠.

ب – فيما يتعلق بالجانب الصليبي:

- لقد أخَّر الملك عموري الأول الهجوم على المدينة مدة ثلاثة أيام حتى يصل الأسطول البيزنطي، مما أعطى فرصة طيبة للمسلمين لتحصين المدينة وإمدادها بالرجال والعتاد [١].

- إحجام القوات الصليبية عن إمداد القوات البيزنطية بالمؤن عندما تعرَّضت لهجوم المسلمين، حيث وقفت موقف المتفرج [٢].

ج – فيما يتعلق بالجانب البيزنطي فيمكن تدوين العوامل التالية:

- عدم استخدام القائد كونتوستيفانوس الأسطول البيزنطي استخداماً عسكرياً وبدا كأنه قائد بري وليس قائداً بحرياً.

- اقتصر دور الأسطول البيزنطي على نقل القوات حتى ساحل دمياط.

- افتقر القائد البيزنطي إلى النظرة العسكرية السليمة عندما ترك السفن البيزنطية متلاصقة في النيل مما سهَّل مهمة القوات الإسلامية في إشعال النار في عدد منها.

- تراخي القيادة البيزنطية في تطبيق القواعد العسكرية التي تكفل أمن سفنها حين تركت البحارة يبيتون خارج سفنهم أيام العمليات العسكرية.

- انتشار المجاعة بين القوات البيزنطية.

س – هناك أسباب مشتركة تتعلق بالجانبين الصليبي والبيزنطي، منها:

- سوء اختيار توقيت خروج الحملة، وتنفيذ الحصار الذي جرى في فصل الشتاء، حيث تعرّضت القوات المتحالفة للسيول التي أغرقت معسكراتها وللعواصف التي كانت تبعد قطع الأسطول عن الشاطئ.

- سوء اختيار المكان الذي عسكرت فيه القوات المتحالفة، وهي المنطقة التي تمتد بطول الساحل، والبالغة حوالي الميل الواحد فلم تستوعب أفراد الحملة البالغ عددهم خمسين ألفاً حيث حشروا في هذا المكان الضيق، ففقدوا حرية الحركة والانتشار الضروريين للدخول في معركة ناجحة.

- أدّى سوء اختيار المكان أن أصبحت القوات المتحالفة هدفاً سهلاً لمرمى المسلمين وهجماتهم.

- عدم وجود قيادة موحدة، وافتقرت القيادتان الصليبية والبيزنطية إلى التنسيق فيما بينهما، مما تسبَّب في فشل عمليات الهجوم على المدينة، وتفشى الشائعات داخل معسكراتها، واتهام كل جانب الجانب الآخر بأنه السبب في فشل الحملة. [٣].

---

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص ٣٨٠.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٨١.
(٣) المصدر نفسه ص ٣٨١.

٢ – نتائج الحملة على دمياط:

- نعد فشل الحملة الصليبية - البيزنطية المشتركة على دمياط أصبحت هذه الحادثة نقطة تحول هامة في تاريخ الشرق الأدنى، لأنه لو نجح التحالف النصراني في تحقيق غايته لكان من الممكن أن يمنع اتحاد بلاد الشام ومصر، الذي يشكل خطراً مباشراً على أوضاع الصليبيين في بلاد الشام، ويعرقل جهود المسلمين في التصدي للصليبيين، وإخراجهم من المنطقة.

- يُعدُّ فشل الحملة النصرانية نقطة تحول هامة، أيضاً - في مستقبل صلاح الدين، الذي ظهر بمظهر المتمكَّن في حماية مصر، وأقنع الدولة الفاطمية، المتداعية بأنه يستطيع حماية البلد من غارات المعتدين بالإضافة إلى حماية مركزه من دسائس المتآمرين، وبذلك حاز على إعجاب الكثير.

- بات المسلمون يهدِّدون، بشكل مباشر، الإمارات الصليبية بحيث شعر الصليبيون يوماً بعد يوم بازدياد تضييق المسلمين عليهم، وبعد أن كانوا يحصرون نشاطهم ضد خطر نور الدين محمود من ناحية الشمال، أضحوا يوزعون قواتهم بين الشمال والجنوب لمواجهة نور الدين محمود وصلاح الدين [١].

- إذا كانت تولية صلاح الدين منصب الوزارة بداية النهاية للدولة الفاطمية فإن هزيمة النصارى أمام دمياط، شكّلت خطوة أخرى نحو القضاء على هذه الدولة حيث تطلع الخليفة العاضد إلى التحرر من نفوذ صلاح الدين، ولكن المصير الفاشل الذي آلت إليه، خيَّب أمله، وأتاح لصلاح الدين فرصة الانفراد بالسلطة في مصر، وتوجيه اهتمامه نحو إضعاف المذهب الشيعي الإسماعيلي وفقدت الدولة الفاطمية الأمل الأخير في التخلص من قبضته القوية وأضحى سيد مصر دون منازع [٢].

٣ – وصول نجم الدين أيوب مصر:

طلب صلاح الدين من نور الدين إرسال والده إليه فوافق نور الدين على ذلك وطلب من نجم الدين أيوب أن يستعد للسفر إلى مصر وحمّله رسالة إلى صلاح الدين يأمره فيها بالتعجيل في إلغاء الخلافة الفاطمية وإعلان الخطبة للخليفة العباسي [٣].

وخرج مع القافلة التي سافر فيها نجم الدين أيوب عدد كبير من التجار وأصحاب المصالح في مصر، فخشي نور الدين على القافلة من الفرنجة وسار بجيشه إلى الكرك، وحاصرها حتى اطمأن إلى اجتياز القافلة لمنطقة الخطر فتركها وعاد إلى دمشق [٤] ووصل والد صلاح الدين نجم الدين أيوب إلى القاهرة في الرابع والعشرين من رجب سنة خمس وستين وخمسمائة وخرج العاضد -

(١) تاريخ الزنكيين في الموصل ص ٣٨١.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٨٢.
(٣) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١١٥.
(٤) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١١٦.

صاحب القصر لاستقباله وبالغ في احترامه والإقبال عليه واتفق لأيوب مع ولده صلاح الدين يوسف شبيه ما اتفق ليعقوب مع ابنه يوسف - عليهما السلام - حين قدم على ولده ووجده متملكاً للديار المصرية وقال:{ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} (يوسف، آية: ٩٩). وذكر أنه لما خرج ولده الملك الناصر صلاح الدين والخليفة العاضد إلى لقائه واجتمعا به قرأ بعض المقرئين:{وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ} (يوسف، آية ك ١٠٠). ولما اجتمع صلاح الدين بأبيه سلك معه من الأدب ما جرت به عادته وفوَّض إليه الأمر كله، فأبى ذلك عليه أبوه وقال: يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفؤ له، فلا ينبغي أن تغير مواقع السعادة [١]، فحكَّمه في الخزائن بأسرها وأنزله اللؤلؤة المطلة على خليج القاهرة [٢] وفي ما حدث لصلاح الدين من اجتماعه بوالده وأهله قال عمارة اليماني:

من شاكر والله أعظم شاكر ::: ما كان من نعمى بني أيوب
طلب الهدى نصراً فقال وقد أتوا ::: حسبي فأنتم غاية المطلوب
جلبوا إلى دمياط عند حصارها ::: عزّ القوي وذلة المغلوب
وجِلوا عن الإسلام فيها كربة ::: لو لم يجلّوها أتت بكروب
فالناس في أعمال مصر كلها ::: عُتقاؤهم من نازح وغريب
إن لم تظن الناس قشراً فارغاً ::: وهم اللباب فإنك غيرُ لبيب
صحت به مصر وكانت قبله ::: تشكو سقاماً لم يعُن بطبيب
عجباً لمعجزة أتت في عصره ::: والدهر ولاّد لكلَّ عجيب
رد الإله به قضية يوسف ::: نسقاً على ضرب من التقريب
جاءته إخوته ووالده إلى ::: مصر على التدريج والترتيب [٣]

وُحكي أنه لما اجتمع صلاح الدين بوالده في دار الوزارة، وقعدا على طراحة واحدة، ذكر نجم الدين أن صلاح الدين ولد ليلة إخراجه من قلعة تكريت قال: فتشاءمت له وتطيرت لما جرى عليَّ وكان معي كاتب نصراني فقال: يا مولاي من يدريك أن هذا الطفل يكون ملكاً عظيماً عظيم الصيت جليل المقدار. قال: فعطفني كلامه عليه. فتعجبت الجماعة من هذا الاتفاق رحمة الله عليهم أجمعين[٤] وقد توفي نجم الدين أيوب في ٥٦٨هـ فقد ركب نجم الدين أيوب، فشبب به فرسه بالقاهرة عند باب النَّصر وسط المحجّة يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحجة، وحمل إلى منزله، وعاش ثمانية أيام، ثم توفي في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة وكان كريماً رحيماً عطوفاً حليماً وبابه مزدحم بالوفود، وهو متلف الموجود ببذل الجود [٥] وكان نجم الدين عظيماً في أنفس الناس بالدين والخير وحسن السَّياسة، وكان لا يمرُّ أحدٌ من أهل العلم والدين به إلا حمل إليه المال والضيافة

(١) مفرج الكروب (١٨٦/١).
(٢) المصدر نفسه ص (١٨٦/١).
(٣) عيون الروضتين (٣٠١/١، ٣٠٢).
(٤) المصدر نفسه (٣٠٤/١).
(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢٤٨/٢).

الجليلة، وكان لا يسمع بأحد من أهل الدين في مدينة إلا أنفذ إليه [١]، وكان صلاح الدين غائباً في بلاد الكَرَك والشوبك على الغزاة، فدفن إلى جانب قبر أخيه أسد الدين في بيت في الدَّار السلطانية ثم نقلا بعد سنين إلى المدينة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصَّلاَّة والسلام وقبرهما في تربة الوزير جمال الدين الأصفهاني وزير الموصل [٢] وقد رثاه عمارة اليماني فقال:

صفوُ الحياةِ وإن طال المدى كَدَرُ ::: وحادث الموتِ لا يُبقي ولا يَذَرُ
وما يزال لسانُ الدهر يُنذِرُنا ::: لو أَنَّرَت عندنا الآيات والنُّذُرُ
فلا تَقُل غرَّت الدُّنيا مطامعنا ::: فما مع الموت لا غشى وكدر
كأس إذا ما الرّدى حيّا الحياة بها ::: لم ينج من سُكرها أنثى ولاَ ذَكَرُ
كم شامخِ العز لاقى الذُّل من يَدِها ::: ما أضعف القَدْرَ إن أَلْوى به القَدَرُ
في كلِّ جيل وعصر من وقائعها ::: شعوا يقطر منها النَّاب والظُّفُرُ
أودى على وعثمان بمخلبها ::: ولم يَفُتها أبو بكر ولا عمر
ومن أراد التأسِّي في مصيبته ::: فللورى برسول الله معتبرُ [٣]

خامساً: إلغاء الخلافة الفاطمية العبيدية:

وتعتبر هذه الخطوة من أعظم المهام التي أنجزها صلاح الدين فقد كان نور الدين حريصاً كل الحرص على إنهائها - فكتب إلى نائبه صلاح الدين يأمر بإقامة الخطبة للخليفة العباسي المستضيء - فاعتذر صلاح الدين، بالخوف من قيام أهل مصر ضده لميلهم إلى الفاطميين وبأنه لم يتهيأ لذلك بعد، إلا أن نور الدين أرسل إلى نائبه: يلزمه بذلك إلزاماً لا فسحة فيه. وكان الخليفة العباسي قد أرسل إلى نور الدين يعاتبه في تأخير إقامة الدعوة له بمصر، فأحضر الملك العادل نجم الدين أيوب، وحمّله رسالة فيها: وهذا أمر تجب المبادرة إليه، لنحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت لاسيما وإمام الوقت - المستنجد - متطلع إلى ذلك بكليته وهو عنده من أهم أمنيته[٤] وكان صلاح الدين متهيباً متردداً في إسقاط تلك الخلافة، حيث أن ميراث العبيديين في مصر، كان عمره أكثر من مائتي سنة وكان نور الدين يعتبر أن فتح مصر نعمة من نعم الله عليه وعلى المسلمين، من أجل توحيد البلاد على منهج أهل السنة وإزالة البدع والرفض [٥]، وكان نور الدين متفهماً لظروف صلاح الدين وكان يخاطبه بالأمير (أسفهلار) ولو أراد لأرسل خطاباً بعزله عن مصر وتوليته قطراً آخر، وهذا ما صرح به نجم الدين لولده صلاح الدين في مصر: إن أراد عزلك.. يأمر بكتاب مع نجّاب حتى تقصد خدمته ويولي بلاده من يريد [٦]. ومن دلائل احترام نور الدين لصلاح الدين ما جاء في خطابه لابن أبي عصرون يوليه قضاء مصر ويقول فيه: تصل أنت وولدك حتى أسيركم إلى مصر، وذلك بموافقة صاحبي، واتفاق منه، صلاح الدين، وفقه الله فأنا

(١) المصدر نفسه (٢/٢٥٢).
(٢) المصدر نفسه (٢/٢٤٩).
(٣) عيون الروضتين (١/٢٥٩).
(٤) كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص ٢٠٩.
(٥) الجهاد والتجديد ص ٢١٥.
(٦) كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص ٢١٥.

شاكر لـه كثيراً كثيراً، جزاه الله خيراً وأبقاه ففي بقاء الصالحين والأخيار صلاح عظيم [١]. فحقيقة العلاقة بين القائدين احترام متبادل وتقدير عظيم وسيأتي الحديث عن العلاقة بينهما بإذن الله والرد على الكتّاب الذين تلقوا زوايات ابن أبي طيء الشيعي الذي حرص على تشويه وتلطيخ العلاقة بين الرجلين والطعن في سيرتهما كلما أمكنه ذلك.

١ – التدرج في إلغاء الخطبة للخليفة الفاطمي:

استفاد صلاح الدين من الرجل الكبير القاضي الفاضل، فقد ساعده على إحكام خطة مدروسة للقضاء على الدولة الفاطمية والمذهب الشيعي الرافضي الإسماعيلي وشرع صلاح الدين في تنفيذها بدقة متناهية وبعد أن هيّأ صلاح الدين المصريين للانقلاب وقلَّم أظفار المؤسسة الفاطمية، فعزل قضاة الشيعة وألغى مجالس الدعوة وأزال أصول المذهب الشيعي، ففي سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م أبطل الأذان بحي على خير العمل محمد وعلي خير البشر. ويعلق المقريزي بأن هذه أول وصمة دخلت على الدولة [٢]. ثم أمر بعد ذلك، في يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة ٥٦٥هـ/١١٦٩م - ١١٧٠م بأن يذكر في خطبة الجمعة الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان ثم علي وأمر بعد ذلك بأن يُذكر العاضد في الخطبة بكلام يحتمل التلبيس على الشيعة فكان الخطيب يقول: اللهم أصلح العاضد لدينك [٣]. وولّى القضاء في القاهرة للفقيه عيسى الهكاري السني فاستناب القضاة الشافعيين في جميع البلاد وأنشأ المدارس لتدريس المذاهب السُّنية وهو في الوقت نفسه يضيق الخناق على العاضد، فيلغي مخصصاته ويحرمه من المال والخيل والرقيق ويمنع رسوم الخلافة وهي حفلاتها الرسمية في الأعياد وغيرها، ويحتجز الخليفة في قصره فلا يسمح لـه بمغادرته إلا في مناسبات قليلة منها خروجه لاستقبال نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوم جاء إلى القاهرة وعمد إلى الخطة نفسها مع أمراء الجيش فأخذ يحدّ من نفوذهم شيئاً فشيئاً ثم قبض عليهم في ليلة واحدة وأنزل أصحابه في دورهم وفرّق إقطاعاتهم عليهم [٤]. وكان العاضد يتابع ذلك كله بقلب حزين ونفس كئيبة وقد خابت الآمال التي عقدها على صلاح الدين وانزوى في مخدعه فريسة للهمّ والمرض [٥]، وأدرك صلاح الدين أن الفرصة باتت مواتية للقضاء على الدولة الفاطمية المحتضرة فعقد مجلساً كبيراً حضره أمراء جيشه وقواده وفقهاء السُّنة ومتصوفوها وسألهم الرأي والنصيحة وقد اتفق رأي الحاضرين على اتخاذ تلك الخطوة الفاصلة في حياة البلاد [٦]. وفي بداية سنة ٥٦٧هـ/١١٧١ - ١١٧٢م قطع صلاح الدين الخطبة للفاطميين وكان قطعها بالتدريج أيضاً، ففي الجمعة الأولى من محرم ٥٦٧هـ/١١٧١ - ١١٧٢م حذف اسم العاضد من الخطبة، وفي الجمعة الثانية خطب باسم الخليفة المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله: وقطعت الخطبة للعاضد لدين الله فانقطعت

(١) المصدر نفسه ص ٢١٥.
(٢) المقريز (اتعاظ) (٣١٧/٣) القاضي الفاضل ص ١٣٧.
(٣) القاضي الفاضل ص ١٣٧.
(٤) الخطط للمقريزي نقلاً عن صلاح الدين الأيوبي لقلعجي ص ١٦١.
(٥) صلاح الدين الأيوبي، قدري قلعجي ص ١٦٢.
(٦) المصدر نفسه ص ١٦٢.

ولم تعد بعدها إلى اليوم الخطبة الفاطمية [١] والملاحظ أن الخطبة للعباسيين قد تمت بالإسكندرية قبل القاهرة ومصر بنحو أسبوعين وذلك لأنها ظلت على المذهب السني طوال العصر الفاطمي [٢] وقد توفي العاضد في العاشر من محرم ٥٦٧هـ/١١٧١ - ١١٧٢م[٣] ويقال: إن صلاح الدين حين علم بوفاة العاضد الفاطمي بعد أيام ندم على أنه تعجل في قطع خطبته وقال: لو عرفنا أنه، أي الخليفة العاضد، يموت في هذا اليوم ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة، فضحك القاضي الفاضل ورد عليه قائلاً: يا مولاي لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت [٤]، فابتسم الحاضرون لهذه المداعبة الكلامية بين الوزير صلاح الدين وكاتبه أو مستشاره التي انطوت بها آخر صفحة من صفحات تاريخ الدولة الفاطمية العبيدية [٥].

٢ – وفاة العاضد عام ٥٦٧هـ:

قال ابن كثير: والعاضد في اللغة القاطع، لا يعضد شجرها، فيه قطعت دولتهم واسمه عبد الله، ويكنى بأبي محمد بن يوسف الحافظ بن محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي أوَّل ملوكهم وكان مولد العاضد في سنة سِتٍّ وأربعين، فعاش إحدى وعشرين سنة، وكانت سيرته مذمومة وكان شيعياً خبيثاً لو أمكنه قتل كلِّ من قدر عليه من أهل السنة[٦].

٣ – فرح المسلمون بزوال الدولة الفاطمية:

ولما انتهى الخبر إلى الملك نور الدين بالشام أرسل إلى الخليفة العباسي يعلمه بذلك مع ابن أبي عصرون فزينت بغداد، وغلقت الأبواب وعُملت القباب وفرح المسلمون فرحاً شديداً وكانت الخطبة قد قَطعت من ديار مصر سنة تسع وخمسين وثلاثمائة في خلافة المطيع العباسيِّ حين تغلب الفاطميُّون عليها أيام المعزَّ الفاطمي، باني القاهرة إلى هذا الأوانِ، وذلك مائتا سنة وثماني سنين [٧] وقد تفاعل الشعراء مع هذا الحدث المدوّي في أرجاء الدنيا فقد قال العماد الأصفهاني:

توفي العاضد الدعي مما ::: يفتح ذو بدعة بمصر فما
وعصر فرعونها انقضى وغدا ::: يوسفها في الأمور متحكمًا
قد طفئت جمرة الغواة وقد ::: داخ من الشرك كل ما اضطرما
وصار شملُ الصلاح ملتئماً ::: بها وعقد السداد منتظماً
لما غدا مشعراً شعار بني ::: العباس حقًّا والباطل اكتتما
وبات داعي التوحيد منتظراً ::: ومن دعاة الإشراك منتقماً

(١) القاضي الفاضل ص ١٣٧.
(٢) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب ص ٥٩.
(٣) القاضي الفاضل ص ١٣٩.
(٤) القاضي الفاضل ص ١٣٩.
(٥) المصدر نفسه ص ١٣٩.
(٦) البداية والنهاية (٤٥١/١٦).
(٧) المصدر نفسه (٤٥٠/١٦).

وظـــل أهـــل الضَّـــلال فـــي ظلـــل ::: داجيـــة مـــن غيابـــه وعمـــى
وارتبـــك الجـــاهلون فـــي ظلـــل ::: لمـــا أضـــاءت منـــابر العُلمـــاء
وعـــاد بالمستضـــيء ممتهـــداً ::: بنـــاء حـــقٍّ قـــد كـــان منُهَـــدِما
واعتلَّـــت الدّولـــة التـــي اضـــطهدت ::: وانتصـــر الـــدين بعـــدما اهتُضـــما
واهتـــزَّ عطـــف الإســـلام مـــن جَـــذَلٍ ::: وافتـــرَّ ثغـــر الإيمـــان وابتســـما
واستبشـــرت أوجـــه الهُـــدى فرحـــاً ::: فليقـــرعِ الكُفْـــر سِـــنَّهُ نَـــدما
عـــاد حـــريمُ الأعـــداءِ منتهـــك ::: الحِمـــى وفـــيءُ الطغـــاة مقتســـماً
قصـــور أهـــل القصـــور أخربهـــا ::: عـــامر بيـــت مـــن الكمـــال سَـــمَا
أزعـــج بعـــد السُّـــكون ســـاكنها ::: ومـــات ذُلاً وأنفـــه رَغـــمِ[1]

إن نـور الـدين محمـود كـان يـرى إزالـة الدولـة الفاطميـة هـدفاً إسـتراتيجياً للقضـاء علـى الوجـود النصـراني، والنفـوذ البـاطني فـي بـلاد الشـام، ولـذلك حـرص علـى إعـادة مصـر للحكـم الإسـلامي الصـحيح فوضـع الخطـط اللازمـة وأعـد الجيـوش المطلوبـة وعـين الأمـراء ذوي الكفـاءة المنشـودة فـتم الله لـه مـا أراد علـى يـدي جنديـه المخلـص وقائـده الأمـين صـلاح الـدين الـذي نفـذ سياسـة نـور الـدين الحكيمـة الرشـيدة، وحـق للأمـة الإسـلامية وزعمائهـا أن تفـرح بهـذه البشرى الكبيرة من إزالة دولـة الشيعة الرافضة.

٤ – اعتبار واتعاظ من زوال الفاطميين من مصر:

كانت مدة ملك الفاطميين مائتين وثمانين سنة وكسراً، فصـاروا، كـأمس الـذاهب وكـأن لـم يَغْنَـوا فيها، وكان أوّل من ملك منهم المهدَىَّ وكـان من أهل سَلَمْيَة حدَّاداً اسمه سعيد، وكـان يهودياً فدخل بلاد المغرب وتسمَّى بعبيد الله، وادَّعى أنَّه شريف علّوِيُّ فاطميُّ، وقال: إنه المهديُّ وقد ذكر هذا غير واحد من سادات العلماء الكُبراء كالقاضـي أبـي بكر البـاقلاَّني والشيخ أبـي حامد الإسفراييني وغير واحد من سادات الأئمة.... والمقصود أنَّ هذا الدّعِيَّ المُدَّعِيَ الكَّذاب راج لـه مـا افتراه فـي تلك البلاد ووازَرهَ جماعة من جهلة العُبّاد، وصارت لـه دولـة وصـولة، فتمكَّن إلـى أن بنـى مدينـة سمّاها المهدية نسبة إليه، وصار مَلِكاً مطاعاً يظهر الرفض وينطوى على الكفر المحض، ثم كـان من بعده ابنه القائم ثم المنصور، ثم المعز - وهو أوّل من دخل مصر منهم وبنيت لـه القاهرة - ثم العزيز ثم الحاكم، ثم الظاهر، ثم المستنصر ثم المستعلي، ثم الآمر، ثم الحافظ، ثم الظافر، ثم الفائز، ثم العاضد وهو آخرهم، فجملتهم أربعة عشر ملِكاً، ومدتهم مائتـان ونيَّف وتسعين سنة... وقد كـان الفاطميون أغنـى الخلفـاء وأكثرهم مـالاً، وكـانوا مـن أغنـى الخلفـاء وأجبـرهم وأظلمهم، وأنجـس الملـوك سـيرة وأخبثهم سريرة ظهرت في دولتهم البدع والمنكرات وكثر أهل الفساد وقل عندهم الصـالحون من العلماء والعبّاد وكثر بأرض الشام النُّصيريُّة والدرزية والحشيشية وتغلب الفرنج على سواحل الشام بكماله، حتى أخذوا القدس الشريف ونـابلس وعجلون والغَوْرَ وبلاد غَزَّة وعسقلان وكرَكَ الشَّوبك وطبرية وبانياس وصور وعشليث وصيدا وبيروت وعكا وصَفَدَ وطرابلس وأنطاكية وجميع ما وَالـىَ

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١٩٥/٢).

ذلك في بلاد آياس [١] وسيس [٢]، واستحوذوا على بلاد آمد والرُّها ورأس العين وبلاد شَنَّى، وقتلوا خلقاً لا يعلمهم إلا الله وسَبَوا من ذراري المسلمين من النساء والولدان ما لا يُحَدُّ ولا يوصَفُ وكادوا أن يتغلبوا على دمشق ولكن صانها الله بعنايته وسلمَّها برعايته، وحين زالت أيامهم وانتفض إبرامهم أعاد الله هذه البلاد كُلَّها على أهلها من السادة المسلمين، ورد الله الكفرة خائبين، وأركسهم بما كسبوا في هذه الدنيا ويوم الدين[٣].

سادساً: القضاء على محاولة انقلابية لإعادة الدولة الفاطمية:

كانت الدولة والمجتمع في مصر في ذلك الوقت في فترة التحول الكبرى في تاريخها من خلافة ونظم ومؤسسات ورجال حكموا البلاد قرنين من الزمان وأثَّرُوا في كل جوانب حياة مجتمعها، إلى حكم جديد ودولة جديدة لها نظمها ومؤسساتها ورجالها والتي بدأت بإجراء التغيير بالتدريج، وحاول صلاح الدين اكتساب عامة الناس إلى جانبه ونجح إلى درجة كبيرة، لكنّ بعض مفكري الدولة الفاطميّة، ورجالها وبعض الجماعات التي فقدت نفوذها وامتيازاتها ظلت على ولائها لما كانت تمثله الدّولة السابقة من أفكار وامتيازات [٤]، فعملت تلك القوى الموالية للفاطميين من جنود وأمراء وكتاب وموظفي دواوين، ومن عائلات الوزراء السابقين مثل بني رزيك وبني شاور، راحوا يخططون للقضاء على حكم صلاح الدين وإعادة الدولة الفاطمية [٥] وقد وصفهم عماد الدين الأصفهاني بقوله: واجتمع جماعة من دعاة الدولة المتعصّبة المتشددة المتصلبة، وتوازروا وتزاوروا فيما بينهم خفية واعتقدوا أمنية عادت بالعقبى عليهم منيّة، وعيّنوا الخليفة والوزير، وأحكموا الرأي والتدبير، وبيّتوا أمرهم بليل، وستروا عليه بذيل [٦] ويبدو أن مؤامرتهم كانت في غاية التنظيم إذ عينوا خليفة ووزيراً ثم كاتبوا الفرنج أكثر من مرّة يدعونهم في إحداها إلى الهجوم على مصر، في وقت كان صلاح الدين غائباً في الكرك، والتفّ هؤلاء حول عمارة اليمني، الفقيه والأديب السنيّ المذهب الفاطمي الولاء الذي تولى مهمة المراسلة مع الفرنج، وظنّ المتآمرون أن سريتهم التامة ستقودهم إلى النجاح، ولكنهم لم يعلموا أن القاضي الفاضل عن طريق ديوان الإنشاء كان يراقبهم مراقبة تامة حتى تحين الفرصة المواتية لكشف سرهم، وتذكر المصادر في كشف مؤامراتهم قصتين تختلفان بعض الاختلاف في التفصيلات. أولاهما: أن أحد الكتاب في الديوان وهو عبد الصمد الكاتب، كان يلقى الفاضل بخضوع زائد، يخدمه ويتقرب إليه ويبالغ في التواضع إليه، فلقيه يوماً، فلم يلتفت إليه فقال القاضي الفاضل: ما هذا إلا لسبب وخاف أن يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين، فأحضر ابن نجا الواعظ وأخبره الحال، وطلب منه كشف الأمر، فلم يجد من جانب صلاح الدين شيئاً، فقصد الجانب الآخر، فكشف الحال إليه، فأرسله القاضي الفاضل إلى صلاح الدين وقال له: تحضر الساعة

(١) آياس: مدينة من بلاد الأرمن على ساحل البحر.
(٢) سيس: قاعدة بلاد الأرمن. صبح الأعشى (١٣٤/٤).
(٣) البداية والنهاية (٤٥٧/١٦).
(٤) صلاح الدين القائد وعصره د. مصطفى الحياري ص ١٦٨.
(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢٨٢/٢).
(٦) المصدر نفسه.

عند صلاح الدين وتنهي الحال إليه، فحضر عند صلاح الدين وهو في الجامع وذكر الحال، عندئذ استدعاهم صلاح الدين وقرّرهم فأقروا بمؤامرتهم، فاعتقلهم ثم أمر بصلبهم [١]. وتشير الرواية الثانية إلى أن المتآمرين أدخلوا الواعظ زين الدين بن نجا بينهم، فتظاهر بمساندته لهم في البداية ثم أعلم صلاح الدين بأمرهم، وطلب منه أن يعطيه ما لابن كامل من أملاك، فوافق وأمر بمخالطتهم وتعريف شأنهم، فصار يعلمه بما يجدّ من أمرهم، ثم وصل رسول من الفرنج إلى صلاح الدين بهدية ورسالة ظاهرية وبرسالة باطنية للمتآمرين، فوصل خبره إلى صلاح الدين [٢]. وقد أشار القاضي الفاضل بنفسه إلى تفصيلات هذه المؤامرة في رسالة كتبها عن صلاح الدين إلى نور الدين بدمشق، وتنمّ عن اطّلاعه الدقيق على المؤامرة، بل اشتراكه في إحباطها، فلعلّه هو الذي دسّ من أعلمه بتفصيلات المؤامرة، كما يشير في رسالته إلى عيون لديوان الإنشاء المصري من الفرنج، وآخرين بينهم على اتصال بالديوان [٣] وجاء في الكتاب الذي كتب بقلم القاضي الفاضل من صلاح الدين إلى نور الدين بعدما تمّت التحقيقات التي أجراها صلاح الدين، ولخص الكاتب بتركيز وشمول: بدايات المؤامرة وتطوراتها، وكيفيّة كشفها، وصلب رؤوس المتآمرين أمام بيوتهم [٤].

- أن صلاح الدين كان لا يزال، بعد قضائه على الخلافة الفاطمية يعتبر (جند مصر.. وأهل القصر) الفاطمي أعداء لدولته وضد وجوده ويتوقع منهم القيام بعمل ضدّه ولذلك فقد كان متحرزاً منهم، ووضع عليهم من عيونه ورجاله الموثوقين من يراقبهم باستمرار ومع ذلك فقد استمر عملهم سرياً بمختلف الوسائل التي كانت متاحة لهم.

- وأنهم كانوا، من إعلان الخطبة العبّاسية وحتى القبض عليهم لا يمر عليهم شهر ولا سنة إلا وهم يُدبّرون المكائد ويعقدون الاجتماعات ويبعثون الرُّسل إلى الصليبيين لموافقتهم على ما يريدون وكان أكثر ما يتعللون به، ويستريحون إليه، المكاتبات المتواترة والمراسلات المتقاطرة إلى الفرنج يوسعون لهم فيها سُبُل المطامع.. ويزينون لهم الإقدام والقدوم [٥]. لكن الفرنج لم يستجيبوا بداية لخوفهم من صلاح الدين، وفي ذات الوقت يؤمّلونهم بالمساعدة في الوقت المناسب.

- ووصل الأمر إلى أنّهم كاتبوا ملك الصليبيين عندما قام صلاح الدين بحملته الثانية على بلاد الكرك والشوبك في قسم كبير من قوّاته يطلبون منه القيام بالدور المتفق عليه وقالوا في كتبهم: إنه بعيد، والفرصة قد أمكنت، فإذا تقدم عموري بقواته إلى صَدْر أو أيلة، فإنه سيقطع الطريق على صلاح الدين ويمنعه من العودة وعند ذلك تثور في القاهرة حاشية القصر، وكافة الجند (الفاطمي السابق في مصر) وطائفة السودان، وجموع الأرمن، وعامة الإسماعيلية، وتفتك بأهل صلاح الدين ومعاونيه ورجال دولته في العاصمة [٦]. لكنّ يقظة صلاح الدين والتكتيكات والمناورات التي قام بها

(١) القاضي الفاضل ص ١٤٦.
(٢) المصدر نفسه ص١٤٦ مفرج الكروب (٢٤٤/١، ٢٤٥).
(٣) القاضي الفاضل ص ١٤٦.
(٤) صلاح الدين القائد وعصره ص ١٦٩.
(٥) كتاب الروضتين (٢٨٧/٢).
(٦) كتاب الروضتين (٢٨٨/٢).

أدركت عموري الذي كان يحاول جاهداً معرفة حركات صلاح الدين في النقب جنوبي الأردن، وجمدته عند مياه الكرمل في جبال الخليل لخوفه من أن يستغل صلاح الدين فرصة حركة الملك الخاطئة، فيتوجه إلى المناطق غربي نهر الأردن والبحر الميت.

- ولم ييأس المتآمرون: فعندما وصل المدعو جِرْج (جورج أو جورجيوس)، كاتب الملك عموري، إلى القاهرة في مراسلة إلى صلاح الدين (ويبدو أن الرسائل كانت متصلة في أوقات السلم، اتصلوا به، وأرسلوا معه كتاباً إلى الملك عموري: أنّ العساكر متباعدة في نواحي إقطاعاتهم، وعلى قرب من موسم علاّتهم، وأنه لم يبق في القاهرة إلا بعضهم، وإذا بعثت أسطولاً إلى بعض الثغور، ففعلنا ما تقدم ذكره في الثورة [١]. وهذا دليل آخر على محاولة استغلالهم لكل الظروف المناسبة، ذلك أن وقت جمع الغلات من الحقول هو الوقت الذي يذهب فيه الأمراء المقطعين وأجنادهم إلى إقطاعاتهم لأخذ حصتهم من الناتج وتوزيعه، وهذه كانت حالة عادية معروفة في تاريخ المنطقة في العصور الوسطى[٢].

- أن الملك عموري كان كلما أراد التعرف على الأوضاع في مصر والاتصال بالمتآمرين والتفاوض معهم، كان يبعث بـ (جِرْج) رسولاً إلى صلاح الدين: ظاهراً إلينا، وباطنا إليهم، عارضاً علينا الجميل الذي ما قبلته قط أنفسنا، وعاقداً معهم القبيح الذي يشتمل عليه علمنا، ولأهل القصر والمصريين (الجند) في أثناء هذه المُدَدد رُسل تتردد، وكتب إلى الفرنج تتجدد [٣].

- كانت سياسة صلاح الدين أثناء هذه الفترة إذا شك أعوانه بأحد من الجماعات المذكورة وقام باعتقاله ولم يتمكنوا من إثبات التهمة ضده، أطلق سراحهم، وخلّى سبيلهم فلا يزيدهم العفو إلا ضراوة، ولا الرقة عليهم إلا قساوة [٤].

- واتصل المتآمرون في ذات الوقت (بشيخ الحيل) سنان [٥]، زعيم الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام، طالبين مساعدته محتجين: بأن الدعوة واحدة، والكلمة جامعة، وأنّ ما بين أهلها خلاف إلا فيما يفترق به كلمة ولا يجب به قعود عن نُصرة [٦]. وطلبوا منه بصورة خاصة اغتيال (الملوك) كما كانت عادتهم أو نصب المكائد لهم وكان الرسول إليهم خال ابن قرجلة [٧]، أحد رجال الدولة الفاطمية السابقين، ويبدو أن الاثنين كانا عند صاحب الجبل عند اكتشاف المؤامرة فالتجأوا إلى الصليبيين [٨].

- ولا نعرف إذا كان المتآمرون اتصلوا بملك صقليّة لإرسال الأسطول مباشرة أم عن طريق

(١) المصدر نفسه (٢/٢٨٨).
(٢) صلاح الدين القائد وعصره ص ١٧٠.
(٣) كتاب الروضتين (٢/٢٨٧).
(٤) المصدر نفسه (٢/٢٨٧).
(٥) المصدر نفسه (٢/٢٨٨).
(٦) المصدر نفسه (٢/٢٨٩).
(٧) المصدر نفسه (٢/٢٨٩).
(٨) المصدر نفسه (٢/٢٨٩).

ملك الصليبيين لكنّ الأسطول قدم بعد فشل المؤامرة، إلى الإسكندرية، وكان مكوناً من ٢٠٠ سفينة ويحمل أعداداً كبيرة من الخيالة والرجالة، فمُني بخسائر كبيرة خاصة وأن الملك عموري لم يتقدم في البرّ كما كان الاتفاق بسبب القضاء على المتآمرين بحزم [١].

- وفي المرّة الأخيرة التي قدم فيها (جِرْج) برسالة إلى ديوان صلاح الدين وصل كتاب إلى الديوان ممن لا نرتاب به من قومه (الصليبيون) يذكرون أنه رسول مخاتلة (خداع) لا رسول مجاملة فاتخذ رجال صلاح الدين الاحتياطات المناسبة لمراقبته دون أن يشعر، ولم يظهروا له أي شكٍ فيه وقام (جرج) بالاتصال بجماعة القصر الفاطمي، ومدبري المؤامرة، وأمراء الجند الفاطمي السابقين، وجماعة من النصارى واليهود عند ذلك توصل رجال دولة صلاح الدين إلى إدخال أحد العيون إليهم من جماعته (فَدَسْنه) إليهم من طائفتهم من داخلهم [٢]، فصار ينقل إلينا أخبارهم ويرفع إلينا أحوالهم [٣].

- وبدأت تنتشر الإشاعات والأقاويل بين الناس حول المؤامرة، وخاف رجال دولة صلاح الدين من انكشاف الأمر وهرب رؤساء الفتنة، فقرروا اعتقالهم، ثم أحضروا واحداً واحداً أمام صلاح الدين: وقَرَّرَهم على هذه الحالة فأقروا واعترفوا واعتذروا بكونهم قُطِعت أرزاقهم وأخذت أموالهم[٤].

- تبين من التحقيقات والإقرارات أنهم عَيّنوا خليفة ووزيراً، وأنه وقع خلاف بينهم حول الخليفة وحول الوزير (آل رُزّيك أو آل شاور).

- استفتى صلاح الدين العلماء في أمرهم، فأفتوا بقتلهم، وعندما تردد صلاح الدين في التنفيذ، طالب أهل الفتوى وأهل المشورة بالإسراع في التنفيذ، فصَدَر الأمر بقتلهم وصلبهم: وشنقوا على أبواب قصورهم، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم [٥]. وكان المشهورون الذين شنقوا: الشاعر عمارة بن علي اليمني، وعبد الصمد الكاتب، والقاضي العويرس، وداعي الدعاة ابن عبد القوي. وقد حاول القاضي الفاضل صادقاً الشفاعة لدى صلاح الدين في عمارة، على الرغم من العداوة القديمة بينهما، إلا أن عمارة اعتقد أنها خدعة فرفض قبولها، فتم صلبه مثل غيره [٦].

- وأما أهل القصر فقد اعتقلوا بداية، ثُم نُقلوا إلى أماكن مختلفة وأعطى القصر إلى أخيه العادل، ذلك أن صلاح الدين رأى: أنهم مهما بقوا فيه بقيت مادة لا تنحسم الأطماع عنها، فإنه (القصر) حبالة للضلال منصوب، وبيعة (مقامٌ) للبدع محجوبة [٧].

---

(١) صلاح الدين القائد وعصره ص ١٧٢.
(٢) صلاح الدين القائد وعصره نقلاً عن كتاب الروضتين ص ١٧٢.
(٣) المصدر نفسه ص ١٧٢.
(٤) المصدر نفسه ص ١٧٢.
(٥) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (٢٨٩/٢).
(٦) صلاح الدين القائد وعصره ص ١٧٣.
(٧) كتاب الروضتين (٢٩٠/٢).

- وشُرِّدت طائفة الإسماعيلية من بلاد مصر ونُفُوا أما البقية فقد أعلن في القاهرة: بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر وراجل السُّودان إلى أقصى بلاد الصعيد [١].

- وكشفت التحريات والبحث في هذه القضيّة عن وجود داعية يُسَمّى (قُديد القَفّا) في الإسكندرية، التي كان غالبية أهلها من أهل السنة، وأن دعوته انتشرت في بلاد الشام ومصر، وأن أرباب المعايش (الحرف والصناعات) في ثغر الإسكندرية يحملون إليه جزءاً من كسبهم، والنسوان يبعثن إليه شطراً وافياً من أموالهن [٢]. كما وجُد لديه كتب ورقاع تدل على الكفر الصريح [٣]. وهكذا فقد تمكن صلاح الدين بفضل الله ثم بصبره وقيادته الحازمة من القضاء على هذه المؤامرة الفتنة التي دفعته أخيراً إلى اتخاذ القرار الحاسم بالنسبة لكل بقايا الدولة الفاطمية من بيت الخلافة، وكبار رجالها، والحاشية، والجند والسودان [٤].

١ – عمارة بن علي اليمني الشاعر:

قال عنه الذهبي: أبو محمد، عمارة بن علي بن زيدان الحكميُّ المذحجي اليمني الشافعي الفرضي، الشاعر، صاحب الديوان المشهور ولد سنة خمس عشرة وخمس مئة وتفقَّه بزبيد مدةً، وحج سنة تسع وأربعين ونفّذه أمير مكة قاسم بن فليته رسولاً إلى الفائز بمصر فامتدحه بالشعر. وكان واضح الاعتقاد في أبي بكر وعمر، فقد حكى عمارة أن الصالح بن رُزِّيك فاوضه وقال: ما تعتقد في أبي بكر وعمر؟ قلت: أعتقد أنه لولاهما لم يبقَ الإسلام علينا ولا عليكم، وأنّ محبتهما واجبة. فضحك، وكان مُرتاضاً حصيفا، قد سمع كلام فقهاء السنة قال الذهبي: هذا حمل من الصالح على رفضه [٥] وقال ابن واصل في سبب موالاة عمارة اليمني للفاطميين: وكان عمارة بن علي اليمني شديد التعصب لهم، لأنه قدم عليهم من اليمن فأحسنوا إليه وخوّلوه، فرعى ذلك ووفى لهم، والإنسان - كما قيل - ضيعة الإحسان، ولم يكن على مذهبهم وإنما كان شافعياً وسنياً، فلما زال أمرهم رثاهم بأحسن الشعر وذبَّ عنهم باللسان إذ لم يمكنه الذبّ عنهم باليد؛ لم لما تحرك جماعة في عَوْد الأمر إليهم، كان من جملة المساعدين على ذلك، شكراً لهم على إحسانهم إليه، فأدى به ذلك إلى أن شُنق [٦]، كما مرّ ذكره - وقد ذكر عمارة مبيانته لمذهب القوم في قصيدة يقول فيها:

أفـاعيلهم فـي الجـود أفعـال سُـنَّةٍ ::: وإن خـالفوني فـي اعتقـاد التشـيع [٧]

وقد علق الذهبي على هذا البيت فقال: يا ليته تشيع فقط، بل يا ليته ترفض، وإنما يقال: هو انحلال وزندقة [٨] وقد قال عمارة في رثاء الفاطميين والعاضد:

---

(١) صلاح الدين القائد وعصره ص ١٧٣.
(٢) كتاب الروضتين (٢/٢٩٠).
(٣) المصدر نفسه (٢/٢٩٠).
(٤) صلاح الدين القائد وعصره ص ١٧٣.
(٥) سير أعلام النبلاء (٢٠/٥٩٤، ٥٩٥).
(٦) مفرج الكروب (١/٢١٢).
(٧) سير أعلام النبلاء (٢٠/٥٩٦).
(٨) المصدر نفسه (٢٠/٥٩٦).

أســـفي علـــى زمـــن الإمـــام العاضـــد ::: أسَـــفُ العقـــيمِ علـــى فِـــراقِ الواحـــد
جالســـت مـــن وزرائـــه وصـــحبت مـــن ::: أمرائـــــه أهـــــل الثنـــــاء الخالـــــد
لهفـي علـى حُجُـراتِ قصـرِك إذ خَلـتَ ::: يـــا بـــن النبـــي مـــن ازدحـــام الوافـــد
وعلـــى انفـــرادك مـــن عســـاكرك الـــذي ::: كـــــانوا كـــــأمواج الخِضـــــم الرّاكـــــد
قَلَّـــــدْتَ مُـــــؤتَمِنَ الخلافـــــة أمـــــرهم ::: فكبـــا وقصَّـــر عـــن صـــلاح الفاســـد

لـه من جملة قصيدة:

يـــا عـــازلي فـــي هـــوى أبنـــاء فاطمـــة ::: لـــك الملامـــة إن قصّـــرت فـــي عزلـــي
بـــالله زُرْ ســـاحة القصـــرين وابـــك معـــي ::: عليهمـــا لا عَلـــى صـــفين والجمـــل
وقـــل لأهلهمـــا والله مـــا التحمـــت ::: فـــيكم قُروحـــي ولا جُرْحـــي بمُنـــدمل
مـــاذا تـــرى كانـــتِ الإفـــرنج فاعلـــة ::: فـــي نســـل آلِ أميـــر المـــؤمنين علـــي [١]

وأنا أستغرب من عمارة اليمني في نعيه لأيام الفاطميين وحنينه إلى بدعهم وأعيادهم وقصورهم وتحديه للدولة السنية الجديدة في مصر ودفاعه عن الفاطميين وأكاذيبهم في زعمهم بأنهم من النسل النبوي الكريم، فهل متاع الدنيا الزائل يفعل بالعقائد الصحيحة ما فعله بعمارة اليماني، وهل العطايا والجاه والمناصب تجعل الإنسان يترك عقيدته الصحيحة ويبكي على أطلال الدولة الفاطمية الشيعية الرافضة؟ وينخرط في بلاد الإسلام؟ إن هذا لشيء عجاب.

٢ – حصار الإسكندرية:

إن أهل الإسكندرية ساهموا في نجاح المشروع السني بمصر، ودافعوا عن صلاح الدين عندما حوصر بها وهم يدافعون عن المدينة بشجاعة فائقة ورجولة منقطعة النظير، ومسلمو مصر عموماً وأهل الإسكندرية منهم خصوصاً دائماً وأبداً في الخندق المدافع عن قضايا الأمة قديماً وحديثاً، ولهم من الطاقات الفكرية والإمكانات المادية، والأقلام السيالة وصفاء الفطرة ما يجعلهم في مصاف من يتصدى للمشروع الشيعي الرافضي الباطني والمشروع الأمريكي الغربي وقد قاوم المصريون قديماً النفوذ الشيعي الباطني وتعاونوا مع إخوانهم من أهل السنة، فكرياً وعقائدياً وسياسياً وعسكرياً واقتصادياً وإعلامياً حتى تمّ القضاء على المشروع الشيعي الباطني ولذلك نجد كتّاب الشيعة الرافضة يقولون عن مصر وأهلها: أبناء مصر؛ لعنوا على لسان داود عليه السلام، فجعل الله منهم القردة والخنازير[٢]، وما غضب الله على بني إسرائيل إلا أدخلهم مصر، ولا رضي عنهم إلا أخرجهم منها إلى غيرها [٣]، وقالوا: بئس البلاد مصر، أما أنها سجن من سخط الله عليه من بني إسرائيل [٤]، وقالوا: انتحوا مصر ولا تطلبوا المكث فيها لأنه يورث الدياثة [٥]، وجاءت عندهم عدة روايات في ذم مصر، وهجاء أهلها، والتحذير من سكناها، ونسبوا هذه الروايات إلى رسول الله ρ، وإلى محمد

(١) كتاب الروضتين (٢/٢٩٥).
(٢) بحار الأنوار (٦٠/٢٠٨) تفسير القمي ص ٥٩٦.
(٣) تفسير العياشي (١/٣٠٤) البرهان (١/٤٥٦).
(٤) تفسير العياشي (١/٣٠٥) البرهان (١/٤٥٧).
(٥) بحار الأنوار (٦٠/٢١١) أصول الشيعة (٢/٩٠٠).

الباقر، وإلى علي الباقر، وهذا رأي الشيعة الروافض في مصر في تلك العصور الإسلامية الزاهرة، وقد عقب المجلس الشيعي الرافضي على هذه النصوص بقوله بأن مصر صارت من شر البلاد في تلك الأزمنة، لأن أهلها صاروا من أشقى الناس وأكفرهم [١] ويبدو أن هذه النصوص هي تعبير عن حقد الرافضة وغيظهم على مصر وأهلها بسبب سقوط إخوانهم الإسماعيليين العبيديين على يد صلاح الدين، الذي طهر أرض الكنانة من دنسهم ورجسهم، وأين هذه الكلمات المظلمة في مصر وأهلها الأحبة من وصية حبيبنا محمد ρ بأهل مصر[٢].

وإليك أيها القارئ الكريم ما قام به أهالي الإسكندرية للدفاع عن الإسلام وعن دولته السنية الجديدة في مصر، فقد تعرضت الإسكندرية لإنزال صقلي في الأيام الأخيرة من عام ٥٦٩هـ/ نهاية تموز ١١٧٤م، وكان الأسطول النورماندي يتكون من مئتي [٣] سفينة وقيل: من مائة وثمانين سفينة تحمل خمسين ألف رجل بينهم ثلاثين ألف مقاتل تنفيذاً للمخطط واسع النطاق الذي اتفقت عليه العناصر الموالية للفاطميين مع ملكي بيت المقدس وصقلية بهدف إحياء الخلافة الفاطمية في [٤] مصر ورد الدعوة الشيعية الرافضية إلى ما كانت عليه وقد وصلت الحملة النورماندية أمام الإسكندرية في ١٦ ذي الحجة بعدما انكشفت المؤامرة وقضى على المتآمرين في الداخل من جهة وبعد وفاة عموري الأول ملك بيت المقدس من جهة ثانية. وشرع النورمان في مهاجمة الإسكندرية ونجحوا في إغراق بعض المراكب المصرية التي كانت راسية على الساحل [٥] وقد أبدى الجيش الأيوبي وأهالي الإسكندرية شجاعة فائقة، فأحرقوا دبابات العدو التي نصبت قرب السور (وأحسنوا القتال والصبر). وكان صلاح الدين غائباً عن الإسكندرية، وحين وصلها زال ما بالمحاربين من تعب وألم الجراح وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه، فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله [٦]. فما كان على الصليبيين سوى التسليم وصاروا بين قتيل وأسير [٧]. وهكذا وجه جيش صلاح الدين وأهالي الإسكندرية ضربة ماحقة بأصحاب فكرة غزو مصر، بحيث لم يعودوا يفكرون في إعادة التجربة مرّة ثانية في عهد صلاح الدين، على الرغم من أنهم لم يتخلوا عن الفكرة كلياً، إذ أعادوا الكرة بعد وفاة صلاح الدين بربع قرن[٨].

سابعاً: الوسائل التي اتخذها صلاح الدين للقضاء على المذهب والتراث الفاطمي:

(١) بحار الأنوار (٢٠٨/٥).
(٢) مسلم (٢٩٧٠/٢).
(٣) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص ٣٨٢.
(٤) تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية ص ٨٠.
(٥) تاريخ القبائل العربية في الدولتين الأيوبية والمملوكية ص ٨١.
(٦) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجيش الأيوبي ص ٣٨٣.
(٧) المصدر نفسه ص ٣٨٣.
(٨) المصدر نفسه ص ٣٨٣.

ليس من السهل اليسير أن يقتلع مذهب من المذاهب، بمجرد تغيير النظام السياسي في بلد ما من البلاد، إنما يحتاج التغيير إلى سنوات عديدة، وتدابير ليست من تدابير القوة والبطش فحسب [١]، لذلك فالملاحظ أن صلاح الدين قد استخدم وسائل وأساليب عديدة في سبيل القضاء على الدعوة الفاطمية بمصر، جاءت بعض هذه الأساليب تتسم بالشدة والعنف والحسم الفوري المباشر، والبعض الآخر اتخذ وسيلة الحيلة والتدرج، واستخدم بعضها القوى العسكرية، في حين نهج البعض الآخر سبيل الدعوة والتعليم والإقناع، والاستمالة عن طريق المنشآت الاجتماعية الدينية الخيرية وما يوقف عليها من أوقاف للصرف عليها [٢] وإليك بعض هذه الوسائل:

١ – إذلال الخليفة الفاطمي العاضد:

بدأ صلاح الدين بإذلال شخص الخليفة الفاطمي العاضد، للقضاء على فكرة (الولاية) التي تبنى عليها جميع النظريات والعقائد الإسماعيلية ويستمد منها الحكام الفاطميون قداستهم، فأرغم الخليفة العاضد على الخروج بنفسه لاستقبال والده نجم الدين أيوب، عند وصوله إلى مصر، رغم ما جرى عليه العرف، وحرصت عليه الرسوم الفاطمية، من استعلاء الخليفة الفاطمي واحتجابه عن الناس لعدم ابتذاله بكثرة ظهوره أمام الناس ولإكسابه مسحة من القداسة والتعظيم، بل يذكر أبو شامة أن العاضد قد خرج لتلقيه إلى ظاهر باب الفتوح، ولم يجر بذلك عادة لهم، وكان من أعجب يوم شهده الناس [٣]، بل اضطر العاضد إلى مخالفة التقاليد والعرف وقواعد ورسوم الدولة، فمنح صلاح الدين ألقاب وزراء السيوف، إذ خلع عليه، ولقبه الملك الأفضل، وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا [٤]، ثم ما فتئ صلاح الدين يعمل على الاستهانة بالخليفة وابتذال مكانته الروحية بين أتباعه وأنصار دولته، فأخذ يستولي على موجوداته وممتلكاته الشخصية وخيوله، بحجة شدة الحاجة إليها في أمور الجهاد، حتى أن الخليفة في آخر الأمر عرض على صلاح الدين أن يتنازل له عن فرسه الخاص الذي لا يملك غيره، فأجاب صلاح الدين بالاعتذار عن

الحاجة [٥]، ولا يخفى أن هذا الابتذال المتكرر المتعمد الموجه للخليفة للاستهانة به أمام رعيته كان يهدف أيضاً إلى إجبار الخليفة على الاعتزال، وتجنب الظهور في المناسبات العامة، حتى ينساه المصريون[٦].

٢ – وضعه من مكانة قصر الخلافة الفاطمي:

عمل صلاح الدين على وضع مكانة قصر الخلافة الفاطمية، بأن أسكن فيه أمراء دولته الأكراد

(١) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب ص ٥٦.
(٢) المصدر نفسه ص ٥٦.
(٣) كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص ٥٦.
(٤) المصدر نفسه ص ٥٧.
(٥) المصدر نفسه ص ٥٧.
(٦) المصدر نفسه ص ٥٧.

وكان هذا العمل تأكيداً لسقوط الدولة الفاطمية إذ ظلت الدولة الفاطمية تعرف طوال عصور ازدهارها (بالدولة القصرية) [١] نسبة لسكن خلفاء الفواطم لقصور عاصمتهم القاهرة ففي سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م قبض صلاح الدين على القصور الفاطمية وسلمها لمملوكه قراقوش الخادم، ثم أسكنها لجنوده وأهله وأسكن أباه بقصر اللؤلؤة على الخليج وقد سكن القصور الفاطمية الملك العادل إبان نيابته للسلطان بمصر عن أخيه صلاح الدين [٢].

٣ – قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر، وإبطال تدريس الفكر الفاطمي به:

ما لبث صلاح الدين في سنة ١١٧١/٥٦٧م أن وجه للدعوة الفاطمية بمصر، طعنة قاتلة، كانت كفيلة ولا ريب بالإجهاز عليها، وذلك بقطعه للخطبة الجامعة من الجامع الأزهر الذي اتخذه الفاطميون جامعة لنشر علوم الدعوة الشيعية الإسماعيلية [٣] وذلك بعد أن قلد وظيفة القضاء صدر الدين عبد الملك بن درباس، فعمل بمقتضى مذهبه، وهو امتناع إقامة الخطبتين للجمعة في بلد واحد، كما هو مذهب الإمام الشافعي، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر، وأقر الخطبة بالجامع الحاكمي من أجل أنه أوسع، فلم يزل الجامع الأزهر معطلاً من إقامة الجمعة فيه مائة عام من ذلك التاريخ، إلى أن أعيدت الخطبة في أيام الملك الظاهر بيبرس [٤]، وأيد صلاح الدين هذه الخطوة الجريئة، بإزالة الشعائر الشيعية، التي أدخلها الفاطميون إلى مصر، واستمرت بها طول عصر دولتهم من الآذان، وإبان إقامة الصلوات، فأبطل من الأذان قول: (حي على خير العمل) واستمر الأذان في مصر على المذهب السني [٥] ومنع صلاح الدين ما كان قد تعود عليه المؤذنون في العصر الفاطمي، من السلام على الخليفة الفاطمي في الأذان [٦]، وأقيمت الخطبة الجامعة بجامع الحاكم على نحو يأخذ الخطيب فيها مأخذاً سنياً يجمع فيه الدعاء للصحابة رضي الله عنهم، وللتابعين ومن سواهم، ولأمهات المؤمنين زوجات النبي ρ، ولعميه حمزة والعباس رضي الله عنهما، ويأتي للخطبة لاسباً السواد على رسم العباسية [٧]. ومما لاشك فيه أن قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر وما صاحب هذا من تعطيل دراسة مذاهب الشيعة بالأزهر، الذي ظل طوال العصر الفاطمي أضخم مراكز الدعوة الإسماعيلية بمصر [٨]، ثم تحويل الأزهر إلى جامعة سنية لتدريس علوم السنة وهو ما استمر عليه الحال حتى اليوم - هجرة علماء أهل السنة للتدريس فيه قد أدى إلى نشر علوم السنة بمصر وفي أغلب أرجاء العالم الإسلامي [٩].

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٨.
(٢) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب ص ٦٠، ٦١.
(٣) المصدر نفسه ص ٩٣.
(٤) الخطط للمقريزي (٥٣/٤).
(٥) الخطط للمقريزي (٤٦/٤) تاريخ مصر الإسلامية ص ٩٣.
(٦) تاريخ مصر الإسلامية ص ٩٣.
(٧) المصدر نفسه ص ٩٤.
(٨) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب ص ٩٧.
(٩) المصدر نفسه ص ٩٧.

٤ – إتلاف وحرق الكتب الشيعية الإسماعيلية:

عمد صلاح الدين إلى الآلات الملوكية الفاطمية، وكنوز القصر الفاطمي، فعمل على إفسادها وأهدى بعضها إلى نور الدين زنكي، والبعض الآخر إلى الخليفة العباسي، ثم طرح باقيها للبيع، بحيث دام البيع فيها مدة عشر سنين [١] وتنقلت إلى البلاد بأيدي المسافرين الواردين والصادرين [٢]، وتحول إلى كتب الدعوة الإسماعيلية، التي احتوت عليها مكتبة القصر الفاطمي، فأحرقها وألقاها على جبل المقطم، ثم فرق الكتب غير المذهبية التي صودرت من مكتبة القصر على كبار علماء وأنصار دولته، مثل العماد الأصفهاني والقاضي الفاضل، وأبي شامة الأصفهاني، مما يؤكد أن هدف صلاح الدين كان إحراق كتب الدعوة الشيعية الرافضية فقط [٣] وفي الحقيقة كانت كتب الدعوة الشيعية الإسماعيلية من أهم وسائل التأثير التي يتخذها دعاة الفاطميين للترويج لدعوتهم وقامت السلطات الأيوبية بإحراق كتب الإسماعيلية، بحيث لم يتبق من كتب الدعوة الإسماعيلية إلا الكتب التي احتفظ بها أنصار الفاطميين باليمن والهند بعد سقوط دولتهم بمصر [٤]، هذا في الغالب.

٥ – ألغى جميع الأعياد المذهبية للفاطميين:

لم يغب عن فكر صلاح الدين خطورة أثر الأعياد والمآتم والحسينيات المذهبية للشيعة في الترويج لمذهبهم وترسيخ معتقداتهم في نفوس المصريين، فألغى جميع الأعياد المذهبية للفاطميين مما أدى إلى انقراضها من مصر مُنذ ذلك الوقت، وبدهاء سياسي - ومنطلق عقائدي مبني على محاربة البدع الشيعية الرافضية تمّ القضاء على الأعياد المذهبية المخالفة للكتاب والسنة، واستكمالاً لهذه الخطوة، أقدم الأيوبيون على صبغ الأعياد والمواسم الدينية بمصر، بصبغة سنية، بقيت إلى اليوم [٥].

٦ – محو رسوم الفاطمية وعملاتهم:

واقترن بمحو الرسوم الفاطمية بمصر، إبطال التعامل بالعملات الفاطمية، خاصة وأنها كانت تحمل نقش العقيدة الفاطمية المؤيدة لحقهم في الخلافة (لا إله إلا الله، محمد رسول الله علي ولي الله) وكما أنها كانت تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين، وضيغ عقائدية فاطمية، كما أن بعضها كانت عملات تذكارية تفرق في المواسم والأعياد المذهبية الشيعية على المقربين، استمالة لهم لعقيدة الدولة [٦].

٧ – الحفاظ على أفراد البيت الفاطمي:

احتاط السلطان صلاح الدين على أهل العاضد وأولاده في موضع خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد وقَرَّر لهم ما يكفيهم وجعل أمرهم إلى قراقوش الخادم، وفرَّق بين الرجال والنساء

(١) كتاب الروضتين (٢/٢١٠) تاريخ مصر الإسلامية ص ٦١.
(٢) المصدر نفسه ص ٦٢.
(٣) المصدر نفسه ص ٦٢.
(٤) المصدر نفسه ص ٦٢.
(٥) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٦٣، ٦٤، ٦٥.
(٦) المصدر نفسه ص ٦٦.

ليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم [١]، فكان من دواعي السياسة وطبائع الملك أن يحتفظ الأيوبيون على جميع أفراد البيت الفاطمي، خشية أن يظهر من دعاتهم من يجمع حولهم الأتباع والمريدين والراغبين في إعادة دولتهم [٢].

٨ – إضعاف العاصمة الفاطمية:

بعد أن نقل الأيوبيون مقر الحكم بمصر إلى قلعة الجبل، التي كانت عملاً عسكرياً بعيد المدى يهدف إلى تحصين مصر ضد هجمات الفرنج، انتهزوا هذه الفرصة لابتذال مدينة القاهرة، عاصمة الفواطم، التي ظلت طوال مدة دولتهم مدينة ملكية، خاصة بسكن الخلفاء، وطوائف العسكر ورجال البلاد، وأرباب الدواوين، كما كانت في نفس الوقت حصناً عسكرياً بحيث كان أغلب أهل مصر يسكنون مدينة الفسطاط [٣]، وقد علق المقريزي على ابتذال عاصمة الفاطميين بقوله: فصارت القاهرة مدينة سكنى، بعدما كانت حصناً يعتقل به، ودار خلافة يلتجأ إليها، فهانت بعد العز، وابتذلت بعد الاحترام، وهذا شأن الملوك، ما زالوا يطمسون آثار من قبلهم ويميتون ذكر أعدائهم [٤] ولكن ما فعله صلاح الدين في سبيل الله ونصرة لنبيه ρ.

٩ – إحياء الأيوبيين لقضية انتحال النسب الفاطمي إلى البيت النبوي:

ارتبط بإبادة الأيوبيين لجميع التراث الفاطمي إحياؤهم لقضية انتحال النسب الفاطمي إلى البيت النبوي وبيان أن الفاطميين ينحدرون من نسل يهودي أو مجوسي، والاستمرار في هدم السند الشرعي - المزيف للخلافة الفاطمية ولقد قام العلماء المعتمدون بجهود مشكورة في فضحهم، مثل ابن خلكان، وابن أبي شامة وابن واصل وغيرهم وأطلقوا على الفاطميين اسم (بني عبيد) إشارة إلى انتسابهم إلى عبيد الله بن ميمون القَدَّاح المجوسي، بل نجد أبو شامة يخبرنا بأنه ألَّف كتاباً منفرداً، يدلل فيه على زيف نسب الفاطميين [٥]، ولقد خصص أبو شامة في كتابه الروضتين صفحات طوال في بيان ادّعاهم للنسب النبوي الشريف[٦].

١٠ – الاستمرار في ملاحقة بقايا التشيع في الشام واليمن:

هكذا قضى أهل السنة بزعامة نور الدين محمود على الدولة الفاطمية، وأبادوا تراثها، وتتبعوا أتباعها في مصر وانكمش التشيع ودخل في طور التخفي والتستر وبدأ زوال المذهب الشيعي الإسماعيلي في مصر مع استقرار وبدأ زوال المذهب الشيعي الإسماعيلي في مصر مع استقرار عساكر نور الدين في مصر عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م واستمر الأيوبيون بقيادة صلاح الدين بمواصلة القضاء على الدعوة الإسماعيلية في مصر واليمن والشام واستكملوا ما بدأه الغزنويون والسلاجقة

(١) كتاب الروضتين (٢/٢١٠).
(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٦٦.
(٣) العمارة العربية في مصر الإسلامية ص ٣٢٤ - ٣٢٦.
(٤) تاريخ مصر الإسلامية ص ٦٨.
(٥) كتاب الروضتين نقلا عن تاريخ مصر الإسلامية ص ٧٠.
(٦) كتاب الروضتين (٢/٢١٤ إلى ٢٢٣).

والزنكيون في محاربة الدعوة الشيعية الإسماعيلية ونشر الدعوة السنية في إيران والشام وظل التشيع يضعف في مصر شيئاً فشيئاً حتى أصبحت تدين بمذهب أهل السنة والجماعة [١].

والحقيقة أن التدابير التي اتخذها زعماء أهل السنة، كنور الدين وصلاح الدين في محاربة المد الشيعي الرافضي أتت أكلها فانقرض من مصر ذلك المذهب الشيعي الرافضي بشكل كامل وهو فقه عميق والأمة في أشد الحاجة إليه والدرس أن اجتثاث البدع من المجتمعات الإسلامية يحتاج لرؤية شاملة ومشروع متكامل بين الإحياء الإسلامي الصحيح والتصدي للفكر الباطني وتربية الأمة على انتزاع حقوقها، ومقاومة الغزاة الصليبّين وفيما مضى تحدثنا عن بعض وسائل صلاح الدين في القضاء على المذهب والتراث الفاطمي العبيدي.

وقد استفاد صلاح الدين والأيوبيون من تجارب نور الدين في الإحياء السني والتصدي للتشيع الرافضي، وإعداد الأمة للمقاومة وانتزاع حقوقها من أعدائها، ولذلك لم يبدأ صلاح الدين من الفراغ وإنما استفاد من الوسائل النورية والتي من أهمها استحداث المدارس السنية، ودور الحديث، وجعل القضاء على المذهب السني وبسط إشرافه على المدارس، واستخدام الحسبة لإعادة مذهب أهل السنة، وتشجيع التصوف السني ورصد الأوقاف لمؤسسات المجتمع المدني، ونشر عقائد أهل السنة وسيأتي تفصيل ذلك بإذن الله عند حديثنا عن الدولة الأيوبية وقد قام الباحث محمد حمدان خالد القيسي بتقديم رسالة لاستكمال المتطلبات لدرجة الماجستير في جامعة اليرموك بالأردن حول أثر جهود صلاح الدين التربوية في تغيير واقع المجتمع المصري يمكن الاستفادة منها في هذا الموضوع.

ثامناً: فتوحات صلاح الدين في عهد نور الدين زنكي:

١ – جهاد الصليبيين وإخراجهم من بلاد المسلمين:

تحقق هدف نور الدين محمود (المرحلي) وهو الوحدة الكاملة بين شمال العراق وبلاد الشام ومصر وبعد سنتين أي في عام ٥٦٩هـ/١١٧٤م شملت مملكة نور الدين السودان والحجاز واليمن، فأصبح المشرق الإسلامي كله دولة واحدة تأتمر بأمر زعيم واحد ينظر بشوق ولهفة إلى الهدف الإستراتيجي الذي سعى لتحقيقه، مُنذ بداية حكمه، وهو تحرير بلاد الشام من الفرنجة المحتلين [٢]، وقد أصبح هذا الهدف يلوح في الأفق فأمر بصنع منبر فخم للمسجد الأقصى لكي يأخذه معه عندما يتوجه لفتح القدس [٣]، وكتب إلى صلاح الدين يأمر بالمسير على رأس جيش مصر ليلقاه على قلعة الكرك الفرنجية [٤]، سار صلاح الدين كما أمره نور الدين وحاصر قلعة الشوبك (جنوب الكرك) فلما علم نور الدين بذلك خرج من دمشق نحو الجنوب ليلقى صلاح الدين ولكنه تلقى رسالة منه قبل وصوله إليه

(١) تاريخ مصر الإسلامية ص ٧٦.
(٢) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١١٨.
(٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين نقلاً عن دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١١٨.
(٤) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١١٨.

يبلغه فيها أن الأمور اضطربت بمصر وأنه يخشى استيلاء المعارضين على الأمور فيها، ولابد له من العودة لضبط الأمور وأنه سيعود في العام القادم للجهاد مع نور الدين [١]، كان نور الدين مهتماً اهتماماً كبيراً بقلع الكفار من بلاد الشام وعندما وصله شيء من ذخائر قصور الفاطميين، وغرائب المصنوعات من الذهب واللؤلؤ: قال: والله ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال ولا نسد به خلة الإقلال فهو صلاح الدين - يعلم أنا ما أنفقنا الذهب في مصر وبنا إلى الذهب فقر.. لكنه يعلم أن ثغور الكفار من بلاد الشام [٢]. أي أنه لا يريد من المال والرجال إلا قلع الكفار من سواحل البلاد [٣] وأما صلاح الدين فقد كان يتفق مع نور الدين في الأهداف الإستراتيجية إلا أنه خاف من اضطراب مصر، فكان يهمه ترتيب شؤون مصر أولاً وصرف همه لهذا، ولذلك اضطر للرجوع ويبدو أن نور الدين فكر بدخول مصر بجيوشه والالتفاف على الصليبيين منها بقيادته وأحس صلاح الدين بنية نور الدين فجمع أهله في مصر وكان من بينهم أبوه نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارمي [٤]، وبعض قادة الجيش وشاورهم فيما سمعه عن نية نور الدين التوجه لمصر وعزله عنها، فأشار عليه أحد أبناء إخوته ويدعى عمر بأن يتم الاستعداد لمقاتلة نور الدين إذا حضر لمصر، ووافقه بعض الحاضرين على رأيه، فبادر نجم الدين والد صلاح إلى زجرهم واستنكار قولهم وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا خالك شهاب الدين ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى، ووالله لو رأيت أنا وخالك هذا نور الدين لم يمكننا إلا أن نقبِّل الأرض بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فإذا كنا نحن هكذا، فما ظنك بغيرنا، وكل من تراه عندك من الأمراء لو رأوا نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم، وهذه البلاد له، ونحن مماليكه ونوابه فيها، فإن أراد عزلك سمعنا وأطعنا والرأي أن تكتب كتاباً مع نجاب تقول فيه: بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد فأي حاجة إلى هذا، يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني إليك، وما ها هنا من يمتنع عليك [٥] وقال للجماعة كلهم: قومُوا عنا، فنحن مماليك نور الدين وعبيده، ويفعل بنا ما يريد، فتفرقوا على هذا، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر[٦]، ولما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين قال له: أنت جاهل قليل المعرفة، تجمع هذا الجمع الكثير، وتطلعهم على ما في نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أهمَّ الأمور إليه وأولاها بالقصد، ولو قصدك لم تَر معك من هذا العسكر أحداً، وكانوا أسلموك إليه وأما الآن بعد هذا المجلس، فسيكتبون إليه ويعرِّفونه قولي وتكتب أنت إليه وترسل في هذا

(١) الباهر ص ١٥٨ دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١١٨.
(٢) كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص ٢١٣.
(٣) الجهاد والتجديد ص ٢١٣.
(٤) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١١٨.
(٥) كتاب الروضتين (٢٢٨/٢).
(٦) المصدر نفسه (٢٢٨/٢).

المعنى وتقول: أي حاجة إلى قصدي؟ يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي، فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك، واشتغل بما هو أهمّ عنده [١] وكان نجم الدين أيوب شديد الحب والولاء والطاعة لنور الدين رحمه الله تعالى - الأمر هكذا عدل عن قصده، وكان الأمر كما قال نجم الدين [٢]. وفي بداية عام ٥٦٨هـ/١١٧٣م وبعد عودة نور الدين من أذربيجان وأرمينية، تسلم منشوراً من الخليفة بالموصل والجزيرة وإربل وخلاط والشام وبلاد قلج أرسلان وديار مصر وفي شهر شوال من نفس العام خرج صلاح الدين بجيشه إلى الكرك وحاصرها وأعلم نور الدين بخروجه تنفيذاً لما تمّ الاتفاق عليه في العام السابق، فخرج نور الدين دمشق بدوره ليلقاه فلما وصل إلى الرقيم (في وسط الأردن) تلقى رسالة من صلاح الدين يبلغه فيها أن والده بمصر مريض، ويخشى عليه الموت فيستغل المصريون الفرصة ويستولوا على البلاد ويمتنعوا فيها وأنه مضطر للرحيل إلى مصر [٣]. وعندما علم نور الدين بذلك قال: إن حفظ مصر أهم عندنا من غيره [٤] ثم لم تلبث أن جاءت الحوادث مصدقة لمخاوف صلاح الدين فقامت عليه ثورة كبيرة بقيادة مؤتمن الخلافة جوهر، كما قامت بعدها مؤامرة ضخمة شارك فيها عمارة اليمني وبقية أنصار المذهب الشيعي الرافضي وقد بينت ذلك فيما مضى. وفي عام ٥٦٨هـ شن نور الدين الغارات على الصليبيين وكان العماد الأصفهاني راكباً مع الملك العادل وهو يقول له: كيف تصف ما جرى؟ فمدحه بقصيدة: وكان ذلك في دفاع نور الدين عن حوران فقال:

عُقِدت بنصرك راية الإيمان ::: وبَدَت لِعَصْرِكَ آية الإحسان
يا غالب الغُلْبِ الملوك وصائد ::: الصيد اللُّيوث وفارس الفُرسان
يا سالبَ التِّيجان من أربابها ::: حُزت الفخار على ذوي التِّيجان
محمود المحمود ما بين الورى ::: في كلِّ إقليم بكلِّ لسان
يا واحداً في الفضل غير مُشَارَكٍ ::: أقسمت ما لك في البسيطة ثان
أحلى أمانيك الجهاد وإنّه ::: لك مؤذِنٌ أبداً بكلِّ أمان
كم بكر فتح ولَّدته ظُباك من ::: حرْبٍ لقمع المشركين عَوَان
كم وقعةٍ لك بالفرنج حديثها ::: قد سار في الآفاق والبلدان
قَمَّصت قُومَصهُم رداء من ردّى ::: وقرنت رأس برنسهم بسنان
وملكت رِقَّ ملوكهم وتركتهم ::: بالذُّل في الأقياد والأسجان
وجعلت في أعناقهم أغلالهم ::: وسحبتهم هوناً على الأَذقان
إذ في السوابغ تُحطمُ السُّمُر القنا ::: والبيض تُخضبُ بالنَّجيع القاني
وعلى غِنَاءِ المشرفيَّة في الطُّلى ::: والهام رَقصُ عواليَ المُرَّان
وكأن بين النَّقع لَمْعَ حديدها ::: نارٌ تألَّفُ من خلال دُخان

(١) المصدر نفسه (٢/٢٢٩).
(٢) كتاب الروضتين (٢/٢٢٩).
(٣) الباهر ص ١٥٩.
(٤) الكامل في التاريخ نقلاً عن دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٢٠.

فـــي مـــأزق وردُ الوريـــد مُكَفَّـــل ::: فيـــه بـــرِيَّ الصَّـــارم الظمـــان
غطّـــى العجـــاج بـــه نجـــوم ســـمائه ::: لتنـــوب عنهـــا أنجُـــم الخُرصـــان
أو مـــا كَفـــاهم ذاك حتـــى عـــاودوا ::: طُـــرُق الضَّـــلال ومركـــب الطُّغيـــان

ومنها:

وجلـــوت نـــور الـــدين ظُلمـــةَ كُفـــرهم ::: لمَّـــا أَتيـــت بواضـــح البُرهـــان
وهـــزمتهم بـــالرَّأي قبـــل لقـــائهم ::: والـــرأي قبـــل شـــجاعة الشُّـــجعان
أصـــبحت للإســـلام ركنـــاً ثابتـــاً ::: والكفُـــرُ منـــك مضعضـــع الأركـــان
قَوَّصـــت أســـاس الضَّـــلاَل بعزمـــك ::: الماضـــي وشِـــدت مبـــاني الإيمـــان
قـــل أيـــن مثلُـــك فـــي الملـــوك مجاهـــدٌ ::: لله فـــي ســـر وفـــي إعـــلان
لـــم تَلْقَهـــم ثقـــة بقـــوة شـــوكة ::: لكـــن وَثِقـــت بنصـــرة الرّحمـــان
وبلغـــت بالتَّأييـــد أقصـــى مَبْلَـــغَ ::: مـــا كـــان فـــي وُســـع ولا إمكـــان
دانـــت لـــك الـــدُّنيا فقاصـــيها إذا ::: حقَّقتـــه لنفـــاذ أمـــرك دانـــي
فمـــن العـــراق إلـــى الشّـــام إلـــى ذُرا ::: مصـــر إلـــى قُـــوص إلـــى أُســـوان
لـــم تَلْـــهُ عـــن بـــاقي الـــبلاد وإنمـــا ::: ألهـــاك فـــرض الغـــزو عـــن هَمَـــذان
للـــرُّوم والإفـــرنج منـــك مصـــائب ::: بـــالترك والأكـــراد والعربـــان
أذعنـــت لله المهـــيمن إذ عنـــت ::: لـــك أوجـــه الأمـــلاك بالإذعـــان
أنـــت الـــذي دون الملـــوكِ وجدتـــه ::: مـــلآن مـــن عُـــرْفٍ ومـــن عِرفـــان
فـــي بـــأس عمـــرو فـــي بســـالة حيـــدر ::: فـــي نطـــق قُسَّـــى فـــي ثُقَـــى ســـلمان
سِـــرٌّ لـــو أنَّ الـــوحي يَنْـــزل أنزلـــت ::: فـــي شـــأنها ســـوَرٌ مـــن القـــرآن
فاســـلم طويـــلَ العُمـــرْ ممتـــدَّ المـــدى ::: صـــافي الحيـــاة مُخَلَّـــدَ السُّـــلطان[1]

٢ – ضم المغرب الأدني:

عمل صلاح الدين على تحصين إنجازاته التي حققها في مصر وذلك بتأمين حدود بلاده حتى لا يؤخذ على غرَّة وأسفرت جهوده عن ضم المغرب الأدنى فقد كانت شمال إفريقية مرتبطة عضوياً بمصر مُنذ الفتوحات الإسلامية الأولى، فكان من الطبيعي أن تتجه أنظار صلاح الدين إلى ضمَّ بلدانها للاستفادة من ثرواتها من جهة، وبفضل موقعها الجيد في حماية حدود مصر الغربية من جهة أخرى ففي عام ٥٦٨هـ/١١٧٣م أرسل صلاح الدين قوة عسكرية إلى المغرب الأدني بقيادة شرف الدين قراقوش غلام المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، فدخل طرابلس وبرقة وبعض بلاد المغرب الأدنى حتى قابس، باستثناء المهدية وسفاقس، وقفصة، وتونس[2].

٣ – ضم اليمن:

يدخل ضم اليمن ضمن المخطط النوري الهادف إلى توحيد جبهة إسلامية واحدة لمقاومة الغزو الصليبي [3] وقد حققت سياسة صلاح الدين في ضم اليمن ما يلى:

---

(١) كتاب الروضتين (٢/٢٤٣، ٢٤٤).
(٢) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص ٤٦.
(٣) تاريخ اليمن الإسلامي د. محمد عبده السروري ص ٢١١.

أ - التضييق على أنصار الفاطميين وبخاصة أن والي اليمن عبد النبي بن مهدي كان شيعياً رافضياً.

ب - استطاع صلاح الدين تأمين حدود مصر الجنوبية، لأن ضم اليمن، الذي يُعدُّ مفتاح البحر الأحمر من ناحية الجنوب، يؤمن له السيطرة العسكرية والتجارية على الأقاليم الجنوبية ويُبعد احتمال حدوث تقارب بين الصليبيين الذين يتطلعون للسيطرة على البحر الأحمر وبين الحبشة التي تدين بالديانة النصرانية، حتى لا يقع بين فكي الكماشة الصليبية على سواحل البحر المتوسط في الشمال، والأحباش على سواحل البحر الأحمر في الجنوب.

ت - كانت اليمن آنذاك تمر بمرحلة عدم استقرار تتنازعها الأهواء السياسية والدينية والمذهبية وبخاصة بين زبيد وصنعاء، كما ظهر دعيٌّ زعم أنه المهدي المنتظر هو عبد النبي بن مهدي وتغلَّب على اليمن، وخطب لنفسه بعد أن قطع الخطبة للعباسيين، وتسمَّى بالإمام، وبنى على قبر أبيه قبَّة عظيمة، وأمر أهل اليمن بالحج إليها ومنعهم من الحج إلى مكة.

ث - أراد صلاح الدين وضع حد لهذه التجاوزات والمساوئ التي تهدد وحدة المسلمين وبخاصة بعد أن أرسل إليه أهل اليمن يستنجدون به لإنقاذهم [١]. ومهما يكن من أمر، فقد: وجه صلاح الدين سرية بقيادة أخيه الأكبر شمس الدولة توران شاه الذي ورد مكة فاعتمر بها وسار منها إلى زبيد، فامتلكها كما سار إلى عدن وامتلكها ومنع الجيش من نهبها وقال: ما جئنا لنخرب البلاد، وإنما جئنا لعمارتها وملكها، ثم سار إلى بقية الحصون والمخالف والمعاقل فملكها، واستوثق له ملك اليمن بحذافيره وخطب للخليفة العباسي [٢]. وقتل الدعي المسمى بعبد النبي، وصفت اليمن من أكدارها، وعادت إلى ما سبق من مضمارها [٣]، وكتب شمس الدولة إلى أخيه الملك الناصر صلاح يخبره بما فتح الله عليه وأحسن إليه، فكتب الملك صلاح الدين بذلك إلى نور الدين، فأرسل نور الدين بذلك إلى الخليفة يبشره بفتح اليمن والخطبة بها له [٤].

٤ – فتح بلاد النوبة:

وكانت وقتها مملكة نصرانية عاصمتها مدينة دنقلة تقع في أعالي النيل، وتربطها بمصر روابط متينة بشكل عام مُنذ الفتح الإسلامي ولما قامت الدولة الأيوبية في مصر أراد صلاح الدين فتح بلاد النوبة لحماية مصر من التعدّي عليها من ناحية الجنوب وأرسل أخاه تورانشاه في شهر جمادى الآخرة عام ٥٦٨هـ/ شهر كانون الثاني عام ١١٧٣م إلى بلاد النوبة، ففتح إبريم، وسبى وغنم، ثم عاد إلى قوص، ودخل الإسلام إلى أماكن لم تطرقها سنابك خيل المسلمين من قبل وعين إبراهيم الكردي

(١) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص ٤٨.
(٢) الطريق إلى بيت المقدس ص ٩٦.
(٣) المصدر نفسه ص ٩٦.
(٤) المصدر نفسه ص ٩٦.

والياً عليها [١] وكان هذا الفتح سبباً في إزالة الحواجز التي كانت تؤول دون انتشار الإسلام [٢] فيها.

تاسعاً: حقيقة الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين:

تحدث المؤرخون عن علاقة نور الدين بصلاح الدين، فقد روى ابن الأثير وذكر أبو شامة نقلاً عن ابن أبي طي أسباب الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين التي ابتدأت سنة سبع وستين وخمسمائة ،وذلك عندما اتفقا على حصار الكرك ورجع صلاح الدين إلى مصر، قبل أن يلتقي بنور الدين [٣]، وأخذ عن ابن الأثير وابن أبي طيء عدد من المؤرخين [٤]، وتبعهم بعض المؤلفين المعاصرين دون تمحيص، وغالوا في تعليلاتهم وتفسيراتهم لأسباب الوحشية ونتائجها، فوصفوا العلاقة بين نور الدين وصلاح الدين وكأنها علاقة عدائية، ومن ذلك أن كل واحد منهما كان يخاف صاحبه وأن صلاح الدين أصبح يسعى للتخلص من سيادة نور الدين ويحبذ أن تظل منطقة الكرك فاصلاً بينه وبين نور الدين، ونور الدين فكر في أنه أخطأ في إنفاذ أسد الدين وصلاح الدين إلى مصر ووصف نور الدين بأنه خصم خطير لصلاح الدين إلى ما ذلك [٥] وهذا التصورات الباطلة لا أصل لها إلا عند ابن أبي طيء وابن الأثير:

فأما ابن أبي طيء: فقد حاول بما أتقنه من الدس والكذب أن يطعن في العلاقة بين الرجلين وهو متهم فيما ينسبه إلى نور الدين مما لا يليق به، فإن نور الدين كان قد أَذَلَّ الشيعة بحلب، وأبطل شعارهم وقوَّى أهل السنة، وكان والد ابن أبي طيء كثير التحامل على نور الدين ويحاول أن يلطخ العلاقة بين الرجلين العظيمين بأكاذيبه النتنة [٦].

وأما ابن الأثير: فهو متهم فيما يكتبه عن صلاح الدين، فهو يلتمس المناسبات أحياناً لنقد صلاح الدين وتجريحه وخاصة عند المقارنة بينه وبين نور الدين [٧]، فمؤرخ البيت الزنكي في كتابيه الكامل في التاريخ والباهر في تاريخ الدولة الأتابكية قد ذكر الآراء في كتابيه والتي نقلها عنه عدد من المؤرخين، وفحواها أن صلاح الدين لم يكن وفياً لأستاذه نور الدين، بل كان يجتهد مُنذ استقرار نفوذه في مصر إلى الاستقلال عنه، ومزاحمته السيادة السياسية ببلاد الشام، فكل هذه الآراء [٨]، كتبها ابن الأثير بعد وفاة صلاح الدين، واضطرار صلاح الدين إلى الخروج على رأس عساكره إلى بلاد الشام، وضم ممتلكات

(١) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص ٤٩.
(٢) جهاد الأيوبيين والمماليك ضد الصليبيين والمغول د. فرست ص ٥٢.
(٣) الباهر ص ١٥٨، ١٥٩ كتاب الروضتين (٢٢٧/٢).
(٤) نور الدين زنكي في الأدب العربي ص ١١٦.
(٥) نور الدين محمود في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية ص ١١٧.
(٦) كتاب الروضتين (١١٧/٢، ١١٨).
(٧) دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص ٦٢.
(٨) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب ص ٢٢.

أستاذه نور الدين بها إلى ممتلكاته بمصر إذ أن خروج صلاح الدين إلى الشام كان من أجل إعادة الجبهة الإسلامية الموحدة، التي كان عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين قد أجهد نفسيهما طويلاً في تكوينها، وكانت بعد وفاة نور الدين على وشك أن تنفصم وترجع الأوضاع إلى ما كانت عليه سابقاً من سوء وتشرذم وضعف، بعد انقسام البيت الزنكي، حزب في دمشق وحزب في حلب، ولم يستطع ابنه الطفل الصالح إسماعيل إعادة توحيد مملكة والده [١]، ولقد كتب صلاح الدين إلى الخليفة العباسي، وإلى ابن نور الدين يخبره أن خروجه للشام هو لتوحيد كلمة المسلمين ضد الفرنج [٢]، وأغلب الظن أن هذه الأقوال التي رددها ابن الأثير، ونقلها عنه بعض المؤرخين بخصوص عدم ولاء صلاح الدين للبيت الزنكي، والروايات التي قيلت حول هذا الموضوع، قد صاغها المؤرخون وعلى رأسهم ابن الأثير لتعليل مسلك صلاح الدين بعد وفاة نور الدين وكان وراءها ولاء ابن الأثير للبيت الزنكي، ثم عدم تعاطفه مع صلاح الدين، الذي قضى على هذا البيت وممتلكاته من ناحية أخرى خاصة وقد لاحظ المؤرخون المحدثون أن ابن الأثير قد تحامل على صلاح الدين في تاريخه الكامل والباهر، وتلمس له مواضع الزلل، وأسباب الخطأ [٣]. وفي الحقيقة أن صلاح الدين كان نعم الجندي في السمع والطاعة لقائده نور الدين زنكي وإليك الأدلة على ذلك:

١ – قال العماد الأصفهاني أن صلاح الدين كان: لا يخرج عن أمر نور الدين، ويعمل له عمل القوي الأمين ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتين [٤].

٢ – وأما أبو شامة، فقد عمد إلى تفنيد اتهامات ابن الأثير لصلاح الدين بخصوص خروجه عن طاعة نور الدين، وفي رأي أبي شامة، أن نور الدين لم ينتقد على صلاح الدين إلا إسرافه في تفريق الأموال وصرفها واستبداده بذلك من غير مشاورته [٥] ويؤكد أبو شامة رأيه، بوثيقة وقف عليها بنفسه، بخط نور الدين، يقرر فيها للقاضي شرف الدين بن أبي عصرون، الذي تولى القضاء له بالشام ثم لصلاح الدين بمصر، إعجابه الشديد بما قام به صلاح الدين من نصرة المذهب السني بمصر، والقضاء على الدولة الفاطمية والمذهب الشيعي، ويطلب من أبي عصرون مساندة صلاح الدين في هذا الأمر الجلل[٦].

٣ – والواقع أن جميع الخطوات الحاسمة، التي اتخذها صلاح الدين لإسقاط الدولة الفاطمية

(١) المصدر نفسه ص ٢٢.
(٢) مرآة الزمان (٣٢٧/٨، ٣٢٨) تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٢.
(٣) التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان ص٣٨، ٤٩.
(٤) كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٣.
(٥) كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٣.
(٦) تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٤.

بمصر والقضاء على الدعوة الإسماعيلية بها، جاءت بأمر مباشر من نور الدين،، ولم تتم إلا بعد أن وصل نجم الدين أيوب والد صلاح الدين من طرف نور الدين إلى مصر، ليشرف بنفسه ويساعد ابنه للقضاء على الدعوة الشيعية الإسماعيلية [١].

٤ – وليس أدل على التبعية الكاملة لصلاح الدين تجاه نور الدين وكونه نائباً عنه في حكم مصر من كونه كان يخطب له على المنابر في أرجاء الدولة الفاطمية، إبان وزارته للخليفة الفاطمي العاضد [٢] وأثر نقل الخطبة للعباسيين، كان الخطيب بمصر وأعمالها، يدعو لنور الدين بعد الخليفة، وقُرِّرت السكة باسم المستضيء بأمر الله وباسم الملك العادل نور الدين فنُقش اسم كل منهم في وجه [٣].

٥ – وكان مجيء ابن القيسراني وزير نور الدين إلى مصر سنة ٥٦٨ ـ ٥٦٩هـ لكشف البلاد وارتفاعها ومراجعة حساباتها لتقرير القطيعة أو الوظيفة السنوية التي يدفعها صلاح الدين لنور الدين، أمراً طبيعياً يؤكد تبعية مصر لنور الدين [٤].

٦ – لقد أدركت الخلافة العباسية، هذه الحقيقة الجوهرية، فميزت بوضوح بين الخِلع الخليفية لنور الدين وبين الخِلَع الخليفية لصلاح الدين وجَعلت خِلع صلاح الدين أقل من خلع نور الدين في حين قلّدت نور الدين بالسيفين، إشارة إلى تقليده لقطري الشام ومصر، وفي نفس الوقت أرسل نور الدين من قبله خَلَع سيّرها من بلاد الشام إلى صلاح الدين وأهله وأمرائه بمصر [٥]، وتأكيداً لتبعيتهم المباشرة له.

٧ – كان صلاح الدين يراعي التأدّب في رسوم الملك، فلا يساوي نفسه بسيده نور الدين، فقد أرسل الرُّسل من القاهرة إلى نور الدين لتخبره بلبس صلاح الدين للخلع وباستجابة صلاح الدين على مداومة إرسال ما قُرَّر عليه من مال إلى نور الدين في كل سنة [٦].

٨ – وإذا كانت جميع الإجراءات التي اتخذها صلاح الدين لإسقاط الخلافة الفاطمية والخطبة لبني العباس والقضاء على الدعوة الإسماعيلية بمصر قد تمَّت بتوجيه مباشر من نور الدين وبعد إرساله لنجم الدين والد صلاح الدين فإن ضمَّ صلاح الدين لليمن تمّ بإذن نور الدين للقضاء على الدعوة الشيعية الإسماعيلية هناك ـ وضم اليمن لجبهة المقاومة ـ بحيث أرسل نور الدين هذه الباشرة بنفسه للخليفة العباسي [٧] وكذلك في ضم المغرب الأدنى وغزو مملكة النوبة وبُشر الخليفة العباسي بقرب فتح القسطنطينية وبيت المقدس [٨]. فقد كتب نور الدين إلى الخليفة العباسي: وقسطنطينية

(١) كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٤.
(٢) السلوك للمقريزي (٤٥/١) تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٤.
(٣) تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٤.
(٤) مفرج الكروب (٢١٩/١) تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٥.
(٥) مفرج الكروب (٤٧/١) تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٦.
(٦) مفرج الكروب (٢٣٥/١) تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٧.
(٧) مفرج الكروب (٢٣٥/١) تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٧.
(٨) مفرج الكروب (٢٣٥/١) تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٧.

والقدس يجريان إلى أمَد الفتوح في مضمار المنافسة والله تعالى بكرمه يدنى قطاف الفاتحين لأهل الإسلام ويوفق الخادم لحيازة مراضي الإمام ومن جملة حسنات هذه الأيام الزاهرة، ما تيسر في هذه النّوْبَة من افتتاح بعض بلاد النُّوبَة، والوصول إلى مواضع منها، لم تَطرُقها سنابك الخيل الإسلامية في العصور الحالية، وكذلك استولى عساكر مصر أيضاً على برقة وحصونها.. حتى بلغوا إلى حدود المغرب [١].

٩ – ومنُذ استقرار صلاح الدين بمصر، حتى وفاة نور الدين داوم صلاح الدين على إرسال تحف القصر الفاطمي إلى سيده نور الدين رمزاً للولاء والتبعيَّة، وداوم صلاح الدين على إطلاع نور الدين على كل صغيرة وكبيرة داخل مصر، فنجده مثلاً يرسل إليه كتاباً يتضمن ذكر ثورة بقايا الفاطميين والتي كان من ضمنها عمارة اليمني [٢]، وليس أدلّ على تعاون كل من صلاح الدين ونور الدين من تفاهمهما الإستراتيجي في قتال الفرنج؛ فيسند أبو شامة أنه في سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م تولى السلطانان نور الدين في الشام وصلاح الدين من مصر في هذه السنة جهاد الصليبيين، ولقد وصف العماد هذا الحدث بـ (جهاد السُّلطانين للفرنج) [٣]، وهذا ما أكَّده صلاح الدين في كتاب له للخليفة العباسي بقوله أنه: كان انعقد بينه وبين نور الدين رحمه الله، في أن يتجاذبا طرفيَّ الغزاة من مصر والشام، والمملوك (أي صلاح الدين) بعسكره وبرّه وبحره، ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره[٤].

١٠ – ولقد أبدى صلاح الدين تبعيته لبيت نور الدين حتى بعد وفاته سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م، بحيث خطب صلاح الدين لابنه الصالح إسماعيل، وضرب السكة باسمه [٥]، ووافى إرسال الرسائل في العزاء بنور الدين [٦]، وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول: إنَّه حتى وفاة نور الدين، كانت مصر والشام قد توحدتا تحت زعامة نور الدين [٧]، وهذا ما عبر عنه العماد الأصفهاني حين امتدح نور الدين فقال:

بملك مصر أهنىء مالك الأمم ::: فشق وأبشر بنصر الله عن أمم
فملك مصر وملك الشام قد نُظِمَا ::: في عقد عز من الإسلام منتظم [٨]

وفي كل الأحوال لم تصل علاقة نور الدين بصلاح الدين إلى درجة العداء ولا مسوّغ لاعتبار الاختلاف في الرأي وحشة ونفرة كما يقرر ذلك عدد من المؤرخين والكتاب وكل ما هنالك أنّ نور

(١) مفرج الكروب (٢٤٨/١) المصدر نفسه ص ٢٧.
(٢) كتاب الروضتين ٢٣٩/٠٢).
(٣) كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٢٧
(٤) المصدر نفسه ص ٢٧.
(٥) السلوك (٥٥/١) تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٨.
(٦) كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٨.
(٧) تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٨.
(٨) كتاب الروضتين نقلا عن تاريخ مصر الإسلامية ص ٢٨.

الدين كان يتطلع إلى مصر على أنها مصدر للواردات وسدّ بها نفقات الجهاد ضد الصليبيين في الشام، وأنها مصدر للطاقة البشرية المجاهدة وكان صلاح الدين أكثر معرفة من نور الدين لما يجري في مصر من أخطار ناجمة عن استعداد أنصار الفاطميين للانضمام إلى الفرنج فوجه اهتمامه إلى بناء جيش قوي، بحيث يستطيع السيطرة على مصر، ورأى أن تثبيت كيان الدولة الجديدة في مصر أولى من الانشغال بمسائل الشام [١]، وهذا يتفق مع ما قاله نور الدين للرسول الذي بعثه صلاح الدين يعتذر عن موقفه من حصار الكرك، حيث قال: حفظ مصر أهم عندنا من غيرها[٢].

عاشراً: وفاة نور الدين محمود:

قال العماد الأصفهاني: وأمر نور الدين رحمه الله تعالى بتطهير (ختان) ولده الملك الصالح إسماعيل يوم عيد الفطر، واحتفلنا لهذا الأمر، وغُلّقت محالُّ دمشق أياما. قال: ونظمت للهناء بالعيد والطُّهر قصيدة منها:

عيـــــدان فطـــــرٌ وصُـــــهُر ::: فـــــتح قريـــــب ونصـــــر
كلاهمـــــا لـــــك فيـــــه ::: حقـــــاً هنـــــاء وأجـــــر
وفيهمـــــا بالتَّهـــــاني ::: رســـــمٌ لنـــــا مســـــتمر

قال: وفي يوم العيد يوم الأحد ركب نور الدين على الرّسم المعتاد محفوفاً من الله بالإسعاد، مكنوفاً من السماء والأرض بالأجناد، والقدر يقول له: هذا آخر الأعياد ووقف في الميدان الأخضر الشمالي لطعن الحلق، ورمي القبق وكان قد ضرب خيمته في الميدان القبلي الأخضر، وأمر بوضع المنبر. وخطب له القاضي شمس الدين ابن الفرّاش قاضي العسكر، بعد أن صلَّى به وذكَّر، وعاد القلعة، طالع البهجة بهيج الطلعة، وأنهب سِماطه العام على رَسْم الأتراك، وأكابر الأملاك، ثم حضرنا على خوانه الخَاص، وله عقد كمال مصون من الانتقاض والانتقاص [٣]،... وفي يوم الاثنين ثاني العيد بكَّر وركب وجمَّل الموكب... ودخل الميدان والعظماء يسايرونه، والفهماء يحاورونه، وفيهم همام الدِّين مودود، وهو في الأكابر معدود، وكان قديماً في أوّل دولته وإلى حلب وقد جرّب الدهر بحنتكه.. فقال لنور الدين في كلامه عظة لمن يغتر بأيامه: هل نكون ههنا في مثل هذا اليوم في العام القابل؟ فقال نور الدين: قل: هل نكون بعد شهر، فإنَّ السِنة بعيدة، فجرى على منطقهما ما جرى به القضاء السَّابق، فإن نور الدين لم يصل إلى الشهر والهمام لم يصل إلى العام، ثم شرع نور الدين في اللعب بالكُرة مع خوّاصه، فاعترضه في حاله أمير آخر اسمه يَرَنْقُش وقال له: ياش [٤]، فأحدث له الغيظ والاستياء، واغتاظ على خلاف مذهبه الكريم، وخلقه الحليم، فزجره وزبره ونهاه ونهره، وساق ودخل القلعة ونزل،

(١) نور الدين زنكي في الأدب العربي في الحروب الصليبية ص ١١٩.
(٢) زبدة حلب (٣٣٩/٢) نور الدين زنكي في الأدب العربي في الحروب الصليبية ص ١١٩.
(٣) المصدر نفسه (٣٠٨/٢).
(٤) كتاب الروضتين (٣٠٨/٢).

واحتجب واعتزل، فبقي أسبوعاً في منزله، مشغولاً بنازله، مغلوباً عن عاجلة بحديث آجله والنَّاس من الختان لاهون بأوطارهم في الأوطان، فهذا يروح بجوده، وذاك يجود بروحه، فما انتهت تلك الأفراح إلاَّ بالأتراح، وما صلح الملك بعده إلا بملك الصالح [١]. قال: واتصل مرض نور الدين وأشار عليه الأطباء بالقصد فامتنع، وكان مهيباً فما روجع، وانتقل حادي عشر شوال يوم الأربعاء من مربع الفناء إلى مرتع البقاء ولقد كان من أولياء الله المؤمنين وعباده الصالحين [٢]، وكانت وفاة نور الدين رحمه الله تعالى بسبب خوانيق اعترته عجز الأطباء عن علاجها [٣] وقد توفي يوم الأربعاء الحادي عشر من شوّال سنة تسع وستين وخمسة مئة ودفن بقلعة دمشق ثم نقل إلى تربة تجاور مدرسته التي بناها لأصحاب أبي حنيفة رحمه الله جوار الخوَّاصين في الشارع الغربي رحمه الله تعالى [٤]. وكان رحمه الله حريصاً على الشهادة وكان يقول: طالما تعرضت للشهادة فلم أُدْركْ وقال الذهبي: نور الدين الشهيد [٥]، وقد رثاه الشعراء بقصائد رائعة من أحسنها ما قاله العماد الأصفهاني:

الدِّين في ظُلَم لغيبة نوره ::: والدهرُ في غُمم لفقد أميره
فلينْدُبِ الإسلامُ حامَي أهله ::: والشام حافظ ملكه وثغوره
ما أعظم المِقدار في أخطاره ::: إذ كان هذا الخطب في مقدوره
ما أكثَر المتأسِّفين لفقد من ::: قرَّت نواظرُهُم بفقد نظيره
ما أغوصَ الإنسانَ في نسيانه ::: أو ما كفاه الموت في تذكيره
من للمساجد والمدارس بانياً ::: لله طوعاً عن خُلُوصِ ضَمِيره
من ينصر الإسلام في غزواته ::: فلقد أصيب بُركنه وظهيره
من للفرنج ومن لأسر ملوكها ::: من للهُدى يبغي فكاك أسيره
من للخطوب مذلَّلاً لجماحها ::: من للزمان مُسهَّلاً لوعوُره
من كاشفٌ للمعاضلات برأيه ::: من مُشرقٌ في الدَّاجيات بنوره
من للكريم ومن لنعش عِثاره ::: من لليتيَم ومن لجبر كسيره
من للبلاد ومن لنصر جيوشها ::: من للجهاد ومن لحفظ أمُوره
من للفتوح محاولاً أبكارها ::: برواحه في غزوه وبكوره
من للعُلا وعُهودها من للنَّدَى ::: ووفوده من للحِجا ووفوره
من كنت أحسب نورَ دينِ محمدٍ ::: يخبو وليلُ الشرك في دَيْجوره
أعزز عليَّ بليث غاب للهُدى ::: يخلو الثَّرى من زوره وزئيره
أَعْزِز عليَّ بأن أراه مُغيَّبا ::: عن محفل متشرَّفٍ بحضوره
لهفي على تلك الأنامل إنَّها ::: مُذ غُيِّبت غاض النَّدى ببحوره

(١) المصدر نفسه (٣٠٩/٢).
(٢) المصدر نفسه (٣١٠/٢).
(٣) المصدر نفسه (٣١٣/٢).
(٤) سير أعلام النبلاء (٥٣٧/٢٠).
(٥) المصدر نفسه

ولقد أتى من كنت تُجري رسمه ::: فضع العلامة منك في منشورة
ولقد أتي من كنت تكشف كُرْبَه ::: فارفع طلامته بنصر عشيرة [١]
ولقد أتى من كنت تؤمن سِرْبَهُ ::: وقَّع له بالأمن من محذُوره
ولقد أتى من كنت تُؤثر قُرْبَه ::: فأَدِم له التَّقْرِيْبَ في تقريره
والجيش قد ركب الغَداَة لَعرْضِهِ ::: فاركب لتُبصِرهُ أوان عبوره
أنت الذي أحييت شرع محمد ::: وقضيت بعد وفاته بنشوره
كم قد أقمت من الشَّريعة مَعْلماً ::: هو مُنْذ غبتَ مُعَرَّضٌ لدِثُوره
كم قد أمرت بحفر خندق مَعْقِل ::: حتى سَكَنت اللَّحْدَ في محضوره
كم قيصرٍ للروم رُمْتَ بقسره ::: إرواء بيض الهند من تاوره [٢]
أُوتيت فتح حصونه وملكت ::: عَقَر بلاده وسبيتَ أهل قصوره
أَزَهِدْتَ في دار الفناء وأهلها ::: ورَغبت في الخُلْدِ المقيم وحُوره
أوَ مَا وعدت القُدْسَ أنك منُجِزٌ ::: ميعاده في فتحه وظهوره
فمتى تجير القُدْسَ من دَنسِ العِدَى ::: وتقِدَّس الرحمن في تطهيره
يا حاملين سريره مهلاً فمن ::: عَجَبِ نهوضكم بحمل ثبيره [٣]
يا عابرين بنعشه أنشقتُمُ ::: من صالح الأعمال نشر عبيره
نزلت ملائكة السماء لدفنه ::: مستجمعين على شفير حفيره
ومِنَ الجفاءَ له مقامي بعده ::: هلاً وفيتُ وسرتُ عند مسيره
حَيَّاك مُعْتلُّ الصَّبا بنسيمه ::: وسقاك مُنْهَلُ الحيا بدروره
ولبسْتَ رضوان المهيمن ساحِباً ::: أذيال سُندس خزَّه وحريره
وسكنت علَّيين في فِرْدَوْسِهِ ::: حِلفَ المسَرَّة ظافراً بأجوره [٤]

وبعد وفاة نور الدين حمل راية الجهاده تلميذه الذكي وجنديه المخلص صلاح الدين الأيوبي الذي بنى جهاده على ما أسَّسه نور الدين من جهاد المشركين وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها، وهذا ما سوف نعرفه بإذن الله تعالى في كتابنا القادم عن عصر الدولة الأيوبية وسيرة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *

(١) كتاب الروضتين (٣٦٩/٢).
(٢) التامور: النفس ومهجتها.
(٣) ثبير: من أعظم جبال مكة المكرمة.
(٤) المصدر نفسه